آية الله الشهيد المطهري

الهدف السامي للحياة الإنسانية





الهدف السامي للحياة الانسانية

آية الله الشهيد المطهري

منشورات
مكتبة الفقيه
الكويت

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م



مكتبة الفقيه - الكويت
السالمية - شارع عمان - مقابل مدرسة الرميثية المتوسطة
ص . ب : ٣٢٠١٨ الرميثية - الرمز البريدي : 20001 - تلفون : ٥٦١٣٩١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« وما خَلَقْتُ الجِنَّ والأنْسَ إلَّا لِيَعْبُدونِ »

قرآن كريم

مقدمة الناشر :

يسرنا أن نقدم للقراء الاعزة ، هذه المحاضرات الخمس ، في هذا الموضوع العام ، وهو (الهدف السامي للحياة الانسانية) لآية الله الشهيد العلامة الشيخ مرتضىٰ المطهري ، استاذ الجيل الثوري الواعي ، ومربي الامة ، والمفكر الاسلامي الكبير ، الذي ساهم اروع مساهمة في دفع الجيل للقيام بثورته الاسلامية الكبرىٰ بقيادة امام الامة وقائد المستضعفين في العالم الامام الخميني العظيم .

وسيجد القراء الكرام - في هذا الكتاب - الفكر الاسلامي المتعمق ، والعرض المتفتح للافكار المتضاربة ، والاستفادة الرائعة من آيات القرآن الكريم ، والروح الاسلامية التوحيدية الطاهرة ، الفانية في الحب الآلهي .

فلنعش اذن مع هذا الفكر الفيَّاض حباً وايماناً ، ولنعُبَّ من معين الاسلام الثوري الاصيل . . . والله الهادي الى الحق .

قسم العلاقات الدولية
منظمة الاعلام الاسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

هـذا الكتاب ، مجمـوعة دروس خمسـة للشهيد العـظيم الاستـاذ المـطهـري تحت عنـوان (هـدف الحيـاة) ، وهي حلقـة من دروس في (النظرة الاسـلاميـة للكـون) القيت عام ١٩٧٢ م .

وقد كانت مسألة « النظرة الاسلامية للكون » وعـرضها على جيل الشبـاب ـ آنذاك ـ من المـواضيع التي تشـد اليها المتدينين المثقفين ، مما دعا الاستاذ الشهيـد لأن يطرح فيهـا بعض الخطوط العريضة استجابة لرغبة بعض طلبته الـذين شكلوا حلقة دراسية لا تتجاوز العشرة اشخاص .

وقد اعتاد الاستاذ دائماً ان يطرح بحوثه ومواضيعـه ـ في

جلسات صغيرة او موسعة ـ مرات ، لتقع موقع النقد التام ، وتصقل صقلاً يؤهلها للعرض النهائي على المجتمع ، وحينئذ يبدأ بتأليف الكتاب المطلوب بأسلوبه الجذاب .

وهذا بالضبط ما جرى لبحث (مقدمة في النظرة الكونية الاسلامية) ، والذي كتبه في صيف ١٩٧٨ م بشكل ملخص مركز في سبعة أجزاء ، نشرت تباعاً .

وعلى اي حال فالمجموعة التي بين يديك ، هي جزء مما دار في تلك الجلسات الدراسية الصغيرة سنة ١٩٧٢ م والتي نقلت من اشرطة التسجيل آنذاك .

اما الذي دفعنا لنشر هذه الدروس فهو :

هذا الفكر الطاهر الزلال للاستاذ الشهيد ، والذي ينبع من معين الاسلام ، وكذلك تأكيد امام الأمة على ضرورة الاستفادة المتزايدة ـ للجيل الشاب ـ من آثاره التي يجب ان تكون مناراً للمجتمع الاسلامي ، ولهذا وجدنا ان من الواجب علينا ان نعرض نصوص هذه الدروس دون اي تعديل ، اللهم الا في بعض العبارات ـ لكل اولئك الذين يشتاقون الى الآثار الفكرية للاستاذ الشهيد ، فنرجو منهم القبول ـ على هذه الحال ـ .

يـدرس الاستاذ في هـذه البحوث (هـدف الحيـاة) من وجهـة نظر القـرآن والمدارس والافكـار البشريـة ، ويفتـح آفاق البحث في كل جهة ، ويطلق للفكر عنانـه في مجالاتـه المختلفـة ، ذلـك ان هــدف القـرآن اذا اوضـح للفكـر الانسـاني بالنحـو الذي رسمـه القرآن ، استـطاع ان يلقي بأضوائه على الحياة فينيرها ، ويبعث فيها حـرارته فيحيلهـا حياة اخرىٰ تهفو لها البشرية اليوم .

ألا تـرىٰ ان كـل هـذه الآلام والآهـات التي زرعت في قلوب البشـريـة ، نـابعـة من عــدم ادراكهـا لسرِّ الحيــاة وهدفها بعد ؟

ان الحيــاة في حقيقتهــا ليست مــرة تعيســة ، ولـكن الضلال فيها هو الذي يقود الى كل هذا الالم والعذاب .

ومن هنا فاننا نحس بحاجة الجيل الشاب المتزايـدة لمثل هـذا البحث المهم ، ليدرك ـ أكـثر فأكـثر ـ حقيقـة ثـورتـه المعنوية المقدسة ، عبر إدراكه لهدف الحياة .

الدرس الاول

هدف الخلقة

تعتبر مسألة (هدف الحياة) احدىٰ المسائل الاساسية التي ينبغي ان يركز عليها الفكر الانساني ، فلقد ارتسم امام الانسان دائماً هذا السؤال :

ما هو الهدف من هذه الحياة ؟ اي ، لأي شيء يعيش الانسان ؟ أو ما هو الهدف الذي ينبغي ان يستهدفه الانسان من حياته وفي هذه الحياة ؟

ومن جانب آخر فإنّا اذا حاولنا ان نبحث الموضوع من وجهة النظر الاسلامية للزمنا ان نطرحه على النحو التالي : (والواقع ان جذور البحث ترجع الى هذه النقطة بالخصوص) .

ما هو الهدف من ارسال الانبياء ؟ وما هي الغاية الاصلية لذلك ؟

من المسلم به ان هدف بعث الانبياء لا ينفصل - بحال - عن الهدف الحياتي لاولئك الذين بعث اليهم الانبياء ليرشدوهم ، فان الانبياء بعثوا ليقودوا البشرية ويوصلوها الى هدفها النهائي .

ولو تقدمنا مرحلة اخرىٰ لوصلنا الى بحث آخر حول (الهدف من الخلقة) ومن خلال البحث عن مسألة (هدف الخلقة) تطرح مسألة خلق الاشياء ، ومن جملتها خلق الانسان والهدف منه ، وهنا يجب ان يوضح الموضوع على النحو التالي :

ان تعبير (هدف الخلقة) ما هو ؟ تارة يطلق ويراد منه التساؤل عن هدف الخالق من عملية الخلق هذه ، اي ما هي الدوافع والعوامل التي دفعته لهذه العملية ؟ وحينئذ نقول : ان هذا التساؤل - بهذا العرض - لا معنىٰ له ، ولا يمكن ان يكون لعملية الخلق هنا ، هدف ، اي لا معنى لأن يستهدف الخالق تحقيق شيء من عملية الخلق . فان الهدف هنا يعني العامل والدافع المحرك للفاعل ليقوم

بهـذا العمل ، ولـولا وجود هـذا العامـل والدافـع لمـا قـام به .

اننـا لا نستـطيـع ان نقـول بـوجـود هـدف وغـرض في المجال الآلهي ، بمعنىٰ ان الفاعل يريـد عبر فعله ان يصـل الى غرض معين ، وان ذلك الغرض هو الذي حركه نحـو هـذا الفعـل ، اي ان هنـاك شيئاً دفـع الفـاعــل ليكـون فاعلاً ، يسعىٰ لتحقيق ذلـك الشيء . وهذا يستلزم نقص الفـاعل ومثـل هذا الاستهـداف انمـا يتصـور في الفـاعلين بالقوة والمخلوقـات ، اما في الخـالق فهو غـير متصور ، ان مثـل هذا الاستهـداف يـرجـع الى الاستكمـال ، بمعنىٰ ان الفاعل يسعى عبر عمله هذا للوصول الى شيء يفقده .

ولكن ـ وتارة اخرى ـ يتـركز الحـديث عن هدف الخلق لا على غاية الفاعل وهدفـه وانما عـلى هدف الفعـل ومعنىٰ غاية الفعـل . ان اي فعل ـ نـركز عليـه ـ لا بد ان يكـون بـاتجاه هـدف معين ، ونحـو كمال خلق لأجله ، فـالفعـل خلق ليصـل الى هذا الكمـال ، لا ان الفاعـل عمـل هـذا العمـل ليصـل هـو الى كمـالــه ، بـل ليصــل الفعـل الى كماله ، اي ان نفس الفعل يسير باتجاه الكمال .

فاذا قلنا ان ناموس الخلقـة يقضي بأن اي فعـل يتحرك

منذ بدئه باتجاه الكمال ، فانه ـ والحال هذه ـ تكون للخلقة غاية .

وهذا هو الواقع ، فان اي شيء يوجد له ـ اساساً ـ كمال منتزع ، وانه خلق ليصل الى كماله المنتزع ، وان ناموس هذا العالم ـ بشكل عام ـ قائم على ان اي شيء يبدأ وجوده من النقص ، وتكون مسيرته مسيرة الكمال ، لكي يصل الى كماله اللائق والممكن .

ان مسألة (ما هي الغاية من خلق الانسان ؟) ، ترجع الى التساؤل عن (ماهية الانسان) ، وما هي الامكانات الكامنة في الوجود الانساني ، وما هي الكمالات الممكنة له ؟ لذا يجب البحث عن الكمالات التي يمكن للانسان ان يبلغها .

ان الانسان خلق لتلك الكمالات ، وطبيعي ان الحكمة ـ بهذا الاعتبار ـ تعبر عن ان يكون عمل ما لأجل هدف معين ، فلا يختلف الحال اذا عبّرنا عنها بالحكمة او الغاية .

وعلى هذا فلا داعي لأن نبحث بشكل مستقل عن غاية الخلقة الانسانية وهدفها ، وانما يرجع هذا البحث الى التساؤل عن هذا الانسان .

ما هو ؟ وما هي الامكانات الكامنة فيه ؟

وبعبارة اخرى : ما دمنا ننظر للبحث من زاوية اسلامية لا عقلية فلسفية ، فان علينا ان نعرف نظرة الاسلام للانسان ، والكمالات التي يمكنه ان يبلغها في التصور الاسلامي .

وطبيعي ان بعثة الانبياء كانت تستهدف تكميل الانسان ، ومما يتفق الجميع عليه ان الانبياء جاءوا ليعينوا الانسان ، ويأخذوا بيده الى الكمال .

إن في حياة الانسان ـ في الواقع ـ نوعاً من الخلأ والنقص لا يمكن للانسان الفردي ، بل وحتى الانسان الاجتماعي ان يسده بمعونة طاقات الافراد العاديين ، فيتعين عليه ان يستعين بالوحي ليكون قادراً على التحرك باتجاه مجموعة الكمالات الممكنة له . فكون الهدف من بعثة الانبياء هو تكميل الانسان وايصاله الى غاية خلقته بشكل عام ، أمر لا ينبغي البحث فيه لأن الكل مسلّم به .

كما انه لا مجال للبحث في ماهية الهدف الحياتي ـ بشكل عام ـ لكل فرد من الزاوية الفردية ، فانه ـ وحسب ما يمكننا ان نكون وماهية الاستعدادات المتوفرة في وجودنا

بالقوة التي نستطيع أن نـوصلها الى المـرحلة الفعلية يكـون هدفنا الحياتي مطابقاً لذلك تماماً .

الا ان هذا المقدار من البحوث يبقى كلياً مبهـماً ويلزمنا حينئـذٍ ان نعود الى القـرآن ليحدثنـا ـ بشكل أكـثر تفصيلاً واشـد تعييناً ـ عن هـدف الانسـان ، وهـل تحـدث عن الهدف من خلق الانسان ؟ وهـل ذكر لنـا الهدف من بعثـة الانبيـاء ؟ وهـل تحـدث عن الهـدف الـذي يعيش لـه الانسان ! .

إننا ـ في الغالب ـ نتحـدث عن المفهوم العـام ـ وهو صحيـح بـدوره ، فنقـول : ان الانسـان خلق للسعـادة ، وان الله لا هـدف لـه من خلق الانسـان ، ولا يصله نفـع من ذلك وانما خلقـه ليصل الى سعـادته ، منتهى الامـر ان الانسـان يقف في مرتبـة من الوجـود وموضـع يجب معه ان يختـار سبيله بكل حـرية ، وان الهـداية الانسـانية تكليفيـة وتشريعية لا هداية تكوينية وغريزية وجبرية .

ولما كانت له حريتـه فان الانسـان بعدان هـدي السبيل قد يحسن الاختيار وقـد يسيء ذلك . (إنّـا هدينـاه السبيل اما شاكراً وامّا كفوراً)[1] .

---

(١) الانسان : ٣ .

وهذا امر صحيح بلا ريب ولكن اين يشخص القرآن هذه السعادة الانسانية .

يقال - عادة - : ان الهدف من خلقة الانسان ، والذي ترتهن به السعادة الأنسانية ، وبالتالي يكون الهدف من بعثة الانبياء - بالطبع - ، هو تقوية الانسان في جانبي (العلم) و (الارادة) فالله خلق الانسان للعلم والمعرفة - وكماله في معرفته الاكثر - كما خلقه للقدرة ليحقق ما يريد ، فتقوىٰ ارادته ويصبح قادراً على تحقيق ما يشاء .

وعلى هذا فان الهدف من خلق حبة الحنطة (أو ما هو استعدادها) هو ان تكون بشكل نبتة الحنطة ، وان سعادة الخروف - في حدها الاقصى - تكمن في التهامه علفه وصيرورته سميناً ، أمّا ما في امكان الانسان فهو يعلو فوق هذه المسائل وهو ان (يعلم) و (يقدر) وكلما علم أكثر وقدر أكثر ، كان الى الغاية والهدف الانساني اقرب .

وتجِدهم تارة يقولون ان الهدف من حياة الانسان هو السعادة ، بمعنى ان يقضي الانسان نصيبه من الحياة الدنيا بشكل افضل وأسعد . . . يتمتع أكثر بمواهب الخلقة والطبيعة ، ويقلل من تألمه فيها ، سواء من جانب

العوامل الطبيعية او من جانب امثاله من ابناء نوعه الانساني ، وليست السعادة شيئاً غير ذلك .

فالهدف من خلقنا ، هو ان يستفيد في هذه الدنيا من وجودنا ومن الاشياء التي حولنا غاية الاستفادة ، اي ان نحصل على (الحد الاعلى من اللذة) و (الحد الاقل من الالم) .

وحينئذ فان الانبياء جاءوا ليحققوا هذا الغرض ، فتكون حياة الانسان قرينة للسعادة ، اي الحد الاكثر من اللذة الممكنة والحد الاقل من الالم الممكن ـ وهو الهدف ، واذا كان الانبياء قد عنونوا مسألة الآخرة بعد ذكر مسألة (الحياة) ، فانما ذلك لأنهم عينوا سبيلاً للسعادة الانسانية . وبالطبع فان سلوك هذا السبيل يستلزم ثواباً ، كما ان مخالفته تستدعي عقاباً خاصاً . ومن هنا جاءت الآخرة تبعاً للدنيا ، كما ان كل جزاء يتبع وضع اي قانون ، فلكي لا تكون القوانين في هذه الدنيا عبثاً ولغواً ـ خصوصاً وان الانبياء لم يكونوا قوة تنفيذية ولم يستطيعوا ان يثيبوا او يعاقبوا الاشخاص ـ فقد طرحوا مسألة عالم الآخرة لكي يعاقب المذنبون ويثاب المحسنون ألّا أننا لا نجد مثل هذا في القرآن الكريم .

ان القرآن يصرح في موضع منه « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »[1] فغاية خلق الانسان والموجود الآخر المسمى بـ (الجن) هي العبادة .

وربما كان هذا أمراً صعب القبول ، فما معنى هذا الهدف ؟ وما هي الفائدة التي تعود بها العبادة على الله ؟ وهي حتماً ليست بذات فائدة له ، وما هي فائدتها العائدة على البشر ليخلق البشر لأجل العبادة ولكن القرآن ـ على أي حال ـ يذكر هذا الموضوع بكل صراحة (اي ان العبادة هي غاية الخلق الانساني) .

وعلى العكس من النظرة السابقة التي تجعل الآخرة امراً طفيلياً تبعياً ، تصرح بعض الآيات بأنه لو لم تكن القيامة لكان الخلق عبثاً ، وهذا يعني انها جعلت بمنزلة الغاية ، وقد تكرر هذا المفهوم في القرآن الكريم كثيراً .

﴿ أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون ﴾[2] .

والعبث يطلق على الشيء الذي لا غاية حقيقية له في

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) المؤمنون : ١١٥ .

قبال الحكمة ، فيأتي الانكار بمعنى انكم حسبتم ان لا حكمة في خلقكم ، وان ليس هناك غاية حكيمة ولذا فهذه الخلقة عبث وخواء ، ثم يأتي عطف البيان « وانكم الينا لا ترجعون » وهذا يعني انه لو لم يكن هناك رجوع الى الله فالخلقة عبث .

واننا لنجد القرآن يكرر التقارن بين مسألة القيامة من جهة ، ومسألة كون الخلق بالحق ، وعدم الباطل واللغو واللعب فيه ، وهو في الواقع نوع من الاستدلال .

ذلك ان احد انماط الاستدلال القرآني على الآخرة هو الاستدلال اللمي ـ حسب المصطلح المنطقي ـ ، بمعنى انه بعد الايمان بوجود إلٰهٍ لهذا العالم ، وانه لا يفعل عبثاً ، وان عمله انما هو بالحق ولا مجال للباطل واللعب فيه ، نعم ، بعد الايمان بان الخليقة لها خالق حكيم ، يأتي الايمان بالرجوع الى الخالق ، في الواقع ان القيامة والرجوع الى الله هي التي تبرر خلق هذا العالم وهذا ما يركز عليه التعبير القرآني واننا لن نعثر في القرآن الكريم على ما يوحي بان الانسان خلق ليعلم أكثر ويقدر أكثر لكي يصل الى هدفه حين يعلم ويقدر ، وانما خلق الانسان ليعبد الله ، وان عبادة الله هي الهدف ، فلو ان

الانسـان علم وعلم أكثر ، وقـدر وقدر أكـثر ، ولم تكن في البـين معرفـة الله التي هي مقدمـة العبادة ، ولم تكن هنـاك عبادة الله ، فان الانسـان لم يخط على طـريق هدف الخلقـة ولا يُعَدُّ من وجهة نظر القرآن إنساناً سعيـداً . اما الانبيـاء فقد جاؤوا ليـوصلوا البشريـة الى السعادة وهي في نـظرهم عبادة الله .

وبهـذا المعنىٰ فلن يكـون الهـدف الاصـلي من الحيـاة في منـطق الاسلام ـ بـالطبـع ـ شيئاً سـوى المعبود ، فـالقـرآن يريد صياغة الانسان ويمنحه هدفه وغايته ، والهـدف الذي يـريد ان يـوصل الانسـان اليه هـو الله لا غير ، وأي شيء غـير ذلك ليس الا مقـدمـة لا اصـالـة لـه ولا استقـلال ، وليس هو الهدف الاصلي .

فالآيات التي تصف الانسان الكامل ، او تتحدث عـلى لسان هذا الانسان ، تعرف هذا الانسان بـأنه الـذي حدد هدفه بوضوح واتجه نحوه وعمل لأجله .

يقـول القرآن الكـريم عـلى لسـان ابـراهيم : ﴿ **اني وجهت وجهي للذي فـطر السماوات والارض حنيفـاً وما أنـا من المشـركـين** ﴾[1] و ﴿ **ان صـلاتي ونسكي ومحيـاي**

(١) الانعام : ٧٩ .

ومماتي لله رب العالمين ﴾[1] .

وتوحيد القرآن هذا ليس توحيداً فكرياً يعتقد الانسان معه بأن مبدأ العالم واحد ، وخالقه واحد فحسب ، وانما هو توحيد في المرحلة الخاصة للانسان ايضاً ، بمعنىٰ ان الانسان من الجانب العقائدي يعتقد بأن خالق العالم واحد لا شريك له ، ومن جانب الهدف يصل الى الحد الذي لا يرى هدفاً يستحق ان يستهدف الا الله لا غير ، وبالطبع تكون الاهداف الاخرى منبعثة ونابعة من هذا الهدف ، فلا استقلال لها ولا اصالة وانما تستمِد من هذا الهدف وجودها .

فكل شيء في الاسلام يدور حول المحور الآلهي سواء من حيث الهدف من بعثة الانبياء ، او من حيث الهدف الحياتي للفرد .

ولندرس الآن مسألة جعل العبادة هدفاً للخلق في القرآن :

فعن الانسان الكامل وعن هدفه الحياتي يقول القرآن الكريم : ﴿ **ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب**

---

(١) الانعام : ١٦٢

العالمين ﴾[1] فالاخلاص هو المقصود قبل كل شيء ، والعبد المخلص هو الذي لا يجد في وجوده حاكماً غير الله .

وأما مسألة هدف الانبياء فللقرآن فيها تعبيرات مختلفة ، فهو يقول تارة **﴿ يا ايها النبي انا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾**[2] .

واخرى يقول : **﴿ يخرجهم من الظلمات الى النور ﴾**[3] .

فمن الواضح ان بعض التعبيرات صريحة في دعوتها الناس للتعرف على الله ، وان الانبياء هم حلقة اتصال بين المخلوق والخالق والرابط بينهما .

ونجد آية اخرى تذكر بصراحة تامة شيئاً آخر كهدف لبعث الانبياء ، وهو « العدالة الاجتماعية » .

﴿ لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ

---

(١) الانعام : ١٦٢ .

(٢) الاحزاب : ٤٥ .

(٣) البقرة: ٢٧٥ .

شديد ومنافع للناس ﴾[1] ، فما هو هدف البعثة ـ طبق الآية ـ وهي من افعال الله التي لا يمكن ان تكون بلا هدف ؟

ان القرآن يقول بان البعثة تمت لاقرار العدالة بين الناس فكل الانبياء جاؤوا للعدالة وهنا نجد فلسفة البعثة قد طرحت بشكل آخر من خلال فرضين :

الفرض الاول : ان الهدف الاساس هو اقرار العدالة بين الناس ، ولما كانت العدالة الواقعية لا تقوم بين الناس ، ـ كما يستدل امثال الفيلسوف ابو علي ابن سينا ـ الا ان يقوم قانون عادل بينهم ، ومثل هذا القانون العادل لا يمكن ان يضعه البشر لعلتين :

الاولى : لأن البشر غير قادر على ان يشخص الحقيقة ، ويتخلّص من الميول والاغراض المصلحية .

والثانية : لعدم وجود ضمان للتطبيق ، فان الطبع الانساني يدفعه لتقديم نفسه على الغير او تشريع القانون الى الحد الذي يحقق منافعه ، فاذا كان هناك اي ضرر رفضه ، وعليه فيجب ان يكون القانون قانوناً يخضع له

---

(١) الحديد : ٢٥

الانسـان ، ومثل هـذا القانـون لا سبيل لـه الا ان يكـون من الله بحيث يحس الانسـان من عمق وجـدانـه بـالخـوف من عصيانه ولما كان الامـر كذلـك اي لكي تتم العدالـة ، نحتاج الى القانون العادل ، وهـذا القانـون يجب ان يكون لـه ثواب وعقـاب موضـوعـان من قبـل الله ، ولكي يؤمن الناس بالثـواب والعقاب ، يجب ان يعـرفوا الله ، فمعـرفة الله صـارت عبر عـدة وسـائط مقـدمـة لاقـرار العـدالـة ، وكذلك فـان العبادات قـررت لهذا الفـرض ، اي لكي لا ينسىٰ النـاس مقنن القانـون ، ويبقوا دائـماً عـلى ارتبـاطهم به ، ويتذكروا أنَّ لهم رباً يـراقبهم ، وهو الله الـذي شرع القانون العادل لهم .

ووفقـاً لمثل هـذا السير الفكـري ـ ولو بقينـا نحن وهذه الآية ـ وجب ان نقول ان الهـدف الاصلي من بعثـة الانبياء هـو اقرار العـدالة بـين النـاس ، وتكـون الـدعـوة الى الله ثـانويـة لكي يتعـرَّفـوا عـلى مقنن القـانـون ، ويحسبـوا لـه حسـابه ، والا فليست لمسـألة الـدعوة الى الله ومعـرفة الله اصالة ، وانما تقوم على الاساس الآنف .

فلدينـا هنا في الـواقع ثـلاثة انمـاط من المنـطق يجب ان نعرف القابل منها للقبول .

الاول : هذا المنطق الذي عرضناه ـ ولا نجد لـه مؤيداً اما ما نقلنـاه عن أمثال ابي عـلي ابن سينا فلم يكن مؤيـداً منهم تأييداً تاماً .

لقـد جعل هـذا المنطق هـدف بعثـة الانبيـاء هـو اقـرار العدالة بين الناس ، فالحياة السعيـدة ـ في الواقـع ـ للناس هي في هذه الدنيا . ومسألـة المعرفـة والايمان بـالله والايمان بالمعاد هي ـ تماماً ـ مقـدمة ذلـك ، لأن العدالـة لا تتم الا بمعـرفة النـاس لإلهم وايمانهم بـالمعاد ، فـالايمـان مقـدمـة العدالة .

امـا المنطق الثـاني ـ فعـلى العكس من ذلـك ـ يؤكـد ان الهـدف الاصـلي هـو معـرفـة الله وعبـادة الله هي الهـدف الاصيـل ، والتقـرب الى الله هـو الهـدف الحقيقي ، امـا العدالة فهي هدف ثانوي ، ذلك لأن البشـرية لكي تصـل الى المعنـويـة وتفـوز بهـا ، عليهـا ان تعيش هـذه الحيـاة الدنيا ، ولأن الحياة الانسانيـة لا تستقر الا في ظـل الشكل الاجتماعي لها ، والشكـل الاجتماعي لا يتم الا بـاستقرار العـدالة ، فـالقـانـون والعـدالـة همـا مقـدمتـان لأن يقـوم الانســان في هذه الحيـاة الدنيـا ـ باطمئنـان ـ بعبـادة الله . واذا لم يكن الامر كذلك فلا قيمة للعدالة .

وعليه فان المسائل الاجتماعية التي تقول بأهميتها الى هذا الحد ، ونطرحها في مجال العدالة ، هي هدف الانبياء ، ولكن لا الهدف الاولي وانما هدف الثانوي اي هي مقدمة لهدف آخر .

وهناك رأي ثالث ، بأن يقول أحد : ما الداعي لأن نفترض - لبعثة الانبياء وبالتالي للخلقة والحياة - هدفاً اصيلاً ونعتبر باقي الاهداف مقدميةً فان بالامكان القول بوجود هدفين لذلك ، وانهم بعثوا لهدفين مستقلين عن بعضهما .

الاول : لكي يكونوا واسطة الاتصال بين البشر وخالقهم وليعبدوا الله ؛ والثاني : لاقرار العدالة بين الناس .

وليس اي من هذين الهدفين مقدمة للآخر بل كل منهما هدف اصلي ، خصوصاً واننا رأينا القرآن الكريم يذكر كلا الهدفين ، فما المانع من ان يكونا هدفين اصليين ولا يكون اي منهما مقدمة للآخر ؟

ولهذا الامر نظائر في مجالات اخرى تعرض لها القرآن .

فمثلاً نجد القرآن الكريم يؤكد على تزكية النفس كثيراً ، انه يؤكد على هذا التهذيب والتنمية النفسية كثيراً فيقول :

﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾[1] .

ففلاح الانسان رهين تزكية النفس في نظر القرآن وهنا يقال :

هل ان تزكية النفس هذه هي بنفسها هدف في تصور الاسلام ؟

هل ان تزكية النفس هدف لحياة الانسان وبعثة الانبياء وخلقة الانسان ؟

ام انها مقدمة ؟

واذا كانت مقدمة فهي مقدمة لأي شيء ؟

هل هي مقدمة لمعرفة الله ، ومقدمة للاتصال بالله وعبادته ؟

هل هي مقدمة لاقرار العدالة الاجتماعية ؟

---

(١) الشمس : ٩ .

وقد جاء الانبياء لهدف اقامة العدالة الاجتماعية ، ومن الضروري لكي تقوم بين الناس ان تعتبر بعض الصفات التي لا تنسجم مع الحياة الاجتماعية رذيلة ، والاخرى المنسجمة معها فضيلة ، وحينئذ فلا بد للانسان ان ينزه نفسه من الصفات التي لا تنسجم مع الحياة الاجتماعية ويخلصها من الحسد والكبر والعجب ، وعبادة الذات والهوىٰ وغير ذلك ، ويزين نفسه بتلك الصفات التي تعتبر اخلاقاً اجتماعية ، وتساعد على اقرار العدالة الاجتماعية مثل الصدق والامانة والاحسان والمحبة والتواضع وغيرها .

او قد يقال : ان تزكية النفس ـ اساساً وبقطع النظر عن اي هدف آخر ـ هي بنفسها هدف مستقل ؟

والآن أيُّ هذه الآراء ينبغي قبوله ؟

اننا نرى ان القرآن يرفض اي نوع من الشرك وبأي معنى كان . انه كتاب توحيدي بكل معنى الكلمة .

● توحيدي بمعنى انه يرفض وجود اي مثل لله (التوحيد الذاتي : « ليس كمثله شيء »[1]) .

---

(١) الشورى : ١١ .

● وهـو توحيـدي بمعنى انـه يصف الله بكـل الصفـات التي تعـطي الحـد الاعـلى من الكمـال لـه ﴿ لـه الاسـماء الحسنىٰ ﴾[1] والامثال العليا ﴿ ولله المثل الاعلى ﴾[2] .

● انه كتاب التـوحيد ، بمعنى انـه يرفض أيَّ فـاعل في قبـال الله ، ويـرى ان اي فـاعـل ؛ يـأتي بعـد الله ، وفي طوله ـ كـما يصطلح ـ وهـذا هو معنىٰ « لا حـول ولا قوة الا بالله » .

● وهـو كتاب التـوحيـد بمعنى انـه لا يـرى للكـائنـات هدفاً اساسياً مستقلاً ونهائياً الا الله .

● وخـلال كل ذلـك فهو لا يـرىٰ للانسـان ـ سـواء في حركته التكوينية او حركته التكليفية والتشريعية ـ هدفاً غير الله .

ان البون يتسع باتساع البعد بين السـماء والارض . . . بين الانسان الذي تريده المدارس الفلسفيـة البشريـة وذاك الـذي يـريـده الاسـلام ، فهنـاك الكثـير من الاشيـاء التي يقـول بها الاسـلام والتي تشبه مـا يقولـه الآخرون ، ولكن

---

(١) الحشر : ٢٤ .

(٢) النحل : ٦٠ .

ليس من زاوية نظرة واحدة ، ان الاسلام ينظر للامور دائماً نظرة توحيدية إلّهية .

فمثلاً اشرنا سابقاً الى ان الانسان في فلسفته توصل الى وجود قوانين ثابتة غير متغيرة حاكمة في هذا الكون .

والقرآن الكريم يقول بهذا الرأي ولكن ليس بهذا التعبير وانما يقول به من زاوية الهية :

﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾[1] ان القرآن يقبل مبدأ العدالة ، بل هو يعطيه قيمة غير عادية وأهمية خاصة ، ولكن لا بعنوان ان العدالة هي هدف نهائي ، او ان العدالة مقدمة ليسعد بها الانسان في هذه الحياة بهذا الشكل الذي نعرفه من السعادة بل انه يعتبر الحياة السعيدة في الدنيا بالنحو الذي يرضاه الاسلام في ظل نوع من التوحيد ، العمل ، اي ان يكون الانسان خالصاً لله .

ان انسان القرآن موجود لا يستطيع تأمين سعادته احد الا الله ، بمعنى ان الانسان موجود لا يروي ظمأه الى السعادة ولا يؤمن له سد الخلأ ، ولا يحقق رضاه

---

(١) فاطر : ٤٣ .

الكامل ، ولا يقوده في مسيرته الحقيقية ، الا الذات الإلهية ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[1] وهو تعبير عجيب ومعجز ! هؤلاء الذين آمنوا واطمأنت قلوبهم بذكر الله . . . ذكرهم مثبتاً لهم هذه الصفة وهي اطمئنان قلوبهم بذكر الله . . . ولكن هل تطمئن قلوب الآخرين باشياء اخرى ؟ كلا ان القرآن ينفي ذلك بعد أن يمهد بذكر كلمة (ألا) التنبيهية ! إنه يذكر وينبه ويعلن امراً هاماً ، ويقدم كلمة (بذكر الله) وحقها ان تتأخر نحوياً ولكنه يقدمها لتفيد الحصر كما يقول اهل البيان ، إذ أن ما من حقه ـ بحسب القاعدة ـ أن يؤخر اذا قُدِّم افاد الحصر بشكل طبيعي ، والجار والمجرور متعلق بالفعل ويأتي بعده ـ بحسب القاعدة ـ ولكنه هنا قدم ليفيد الحصر ويعلن انه بذكر الله لا غير ، بنسيان ما عدا الله ، تطمئن القلوب ، وان الذي يؤمن سعادة القلب المضطرب الباحث عن الحقيقة ليس الا الله اما كل شيء عداه فما هو الا مقدمة له انه موقف من المواقف الانسانية في مسيرتها الطويلة لا المقصد النهائي ، وحتى العبادة كذلك ، إذ يقول ﴿ **وأقم الصلاة**

---

(١) الرعد : ٢٨ .

لـذكـري ﴾[1] وفي آيــة الصــلاة ﴿ **ان الصــلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾[2] يذكر القرآن خاصيـة الصلاة ويقـول عن هدفها ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾[3] .

ان الاسـلام يريـد الانسان للعبـادة وسبيل التقـرب الى الله والتعـرف عليـه وذكـره ، وطبيعي ان يحصـل الانسـان عـلى قدرتـه هنـا ، الا ان العلم والقدرة بـالنسبة لكل الاشياء ايضاً مقدمـة لا اصل ، وكـذلك تـزكية النفس فـانها جميعاً اهداف ثانوية ، فهي اهداف لشيء ووسائل لشيء آخر .

---

(١) طه : ١٤ .

(٢و ٣) العنكبـوت : ٤٥ .

الدرس الثاني

اساس الاخلاق الفردية والاجتماعية :

يحتاج الانسان في حياته الانسانية ـ الفردية والاجتماعية ـ الى مجموعة من الاهداف اللامادية ، ونحن هنا لن نتعرض الى جانب الضرورة الفردية في حياة الفرد للاهداف والقيم المعنوية وغير المادية ، لأننا لا نرى فعلاً حاجة لذلك ، وربما يتوضح الحال فيها من خلال بحوثنا الاجتماعية .

ومن المسلم به ان أية مدرسة اجتماعية تحتاج الى وجود مجموعة من الاهداف المشتركة بين جميع الافراد ، ذلك ان هذه الاهداف المشتركة ان عدمت فان الحياة

الاجتماعية بمفهومها الـواقعي ـ اي الحياة المنـظمة ـ تعـود غير ممكنة ، فالحياة الاجتماعية معناها التعـاون ، والتعاون في مجـال الاهداف المشتـركـة ممكن ، امـا اذا لم يـوجـد في البين هدف مشترك فان هـذا الامكان ينتفي ، وان الهـدف المشترك يعم الاهداف المادية والمعنوية .

فمن الممكن ان يكـون الهدف المشتـرك لجميـع الافـراد هدفاً مادياً كمثـل الشركـات التجاريـة والصناعيـة للأفـراد المشتركين في تأسيسها ،حيث يجتمع عددٌ من الـرأسماليـين ويؤسسـون شركـة تجاريـة او صنـاعيـة ، او يتفق صـاحب رأسمال وصاحب ساعدٍ عامل ، او يتفق اصحاب سواعـد عـاملة ، فالعمـل والساعـد من احدهمـا ، ورأس المال من الآخر ثم يأتي العمل المشترك .

فـالهـدف المشتـرك اعم من المـادي والمعنـوي ، الا ان المجتمـع الانسـاني لا يمكن ان يُشكِّـل تمـامـاً كـما تشكـل الشـركـات بمعنى انـه لا يمكن ان يكـون اسـاس الحياة الاجتمـاعيـة شـركـة كبـرى لا غـير ، هـذا مـا نـراه نحن بـالـطبـع ، والافـان البعض يفتـرض هـذا التصـور وهـذا (راسل) يبني اخلاقـه على هـذا الاساس !! لأنـه لا يرى

للاخلاق اساساً اجتماعياً سوى المنافع الفردية ، إنه يقول ان اخلاق المجتمع في الواقع نوع من التعاقد يقوم به الافراد ، ذلك لأن الافراد جميعاً يدركون ان الحفاظ الافضل على منافعهم يقتضي ان يراعي كل منهم حقوق الآخرين ووجودهم .

ويضرب لذلك مثالاً فيقول :

« أنا ـ بحسب الطبع ـ اميل لأن امتلك بقرة جاري ، ولكني ملتفت الى ان هذا العمل اذا تحقق فان جاري سوف يرد عليه ويأخذ بقرتي ، وهكذا يقوم الجار الآخر بنفس العمل ، وحينئذ ـ فبدلاً من الانتفاع الاكبر ـ سوف اصاب بضرر أكبر ، وحينئذ اقول ! ان المصلحة تقتضي ان احترم حقك واعتبر بقرتك ملكاً لك ، لتكون بقرتي ملكاً لي » ، وهكذا يعتبر (راسل) الحفاظ على المنافع الفردية اساساً للاخلاق الاجتماعية ، وفي الواقع فهو يرى ان اساس الاحترام للحقوق الفردية ، هو ان يحترم عدة من الشركاء حقوق كل فرد منهم لأنهم يرون ان مصلحة الفرد تكمن في التعاون .

ونحن نقول ان العلاقة بين اللصوص تقوم على هذا

الاساس ، فان عدداً من اللصوص عندما يتفقون على السرقة ويقطعون الطريق نراهم يقسمون النتائج بالسوية والعدالة بينهم ، ويراعي بعضهم البعض لأنهم يعلمون ان كل فرد لوحده لا يستطيع القيام بهذا العمل ، ولأن كل فرد يحتاج للآخرين فانه يحترم حقوقهم، ولهذا كنا نقول دائماً ان فلسفه (راسل) تخالف شعاره فلقد كان شعاره المحبة الانسانية في حين تعمل فلسفته على اقتلاع جذور الانسانية ، ذلك لأنه كان يرى الاخلاق الاجتماعية قائمة على اساس المنافع ، ويمكن لهذه الاخلاق ان تشمل الفرد الذي يلاحظ منفعته في التعاون مع الآخرين ويخاف ردود فعلهم ، وعندما تكون هناك مجموعة متكافئة من حيث القدرة والقوة فان كل فرد يخاف الآخرين ويرعىٰ حقوقهم اما عندما يصل احدهم الى حدٍ يطمئن معه تماماً الى ان اياً من هؤلاء المتعاونين معه لا يستطيع ان يقاومه لضعفه فلا داعي يدعوه لمراعاة الجوانب الاخلاقية ولماذا يفعل ذلك ؟

فلنفترض نيكسون وبريجينيف (يلاحظ ان الحديث كان في حالة كون نيكسون رئيساً للولايات المتحدة الامريكية) يقف بعضهما في قبال البعض ، ولأنهما

متساويان في القدرة والقوة فان كلا منهما يحسب حساب الآخر ، ويرى ان منفعته تكمن في مراعاة مصالح الآخر ولكنه في قبال اي شعب ضعيف ليس لديه اي داع للسلوك الاخلاقي وهناك فاعتراض (راسل) على امريكا في حربها ضد فيتنام مثلاً لا معنى له ولا معنى لوصفه بانه غير انساني ، اذ ماذا يعني قوله غير انساني ؟ وما الملزم لامريكا ان لا تحارب ولا تعتدي ؟

وعلى اي حال فهذا منطق مطروح ، وطبيعي انه منطق سخيف ذلك لأنه يجيز اساساً للقوي ان يستغلَّ قوته ، غاية الامر انه يقول للضعيف كن قوياً لكيلا يستطيع القوي ان يظلمك وهذا كلام صحيح ولكنه لا يبقى للاخلاق موضعاً ، لأنه لا يستطيع ان يأمر القوي قائلاً له : مع انك تعلم ان الضعيف يستطيع ان يرد عليك ولكن لا تظلم ، فان امره هذا بلا مبرر ، فلماذا لا يفعل ، مع ان هذا العمل في مثل هذه المدرسة مجاز قطعاً .

اذن يجب الاتجاه نحو شيء آخر ، ويمكن ان يقوم رأي على اساس تلك الاهداف المادية المشتركة ، ولكن المتخلص من المفاسد يطرح سبيلاً آخر فيقول :

ان علينا ان نبحث عن دوافع اعتداء الافراد على غيرهم ثم نعمل على محو هذه الدوافع ، وليس من الضروري ان تكون تلك عللاً وجدانية او نفسية ، او نتيجة اتباع مدرسة خاصة وتربية معينة انه يقول :

« لنفترض انكم اعترضتم بعدم وجود مانع ورادع للقوي حين يصمم على ظلم الضعيف ولكننا يجب ان نبني المجتمع على النحو الذي لا يتضمن وجود قوي وضعيف اذ في اي شيء يكمن اساس القوة والضعف ؟ فاذا استطعنا القضاء جذرياً على هذا الاساس كان افراد المجتمع على حد سواء ، وحينئذ نجدهم ـ بالطبع ـ يمتلكون الاحترام المتبادل لحقوق الافراد لأنهم متساوون .

وليس ذلك الاساس سوى الملكية ذلك لأن كل القدرات السياسية والاجتماعية وغيرها تنبع منه .

اقضوا على الملكية ليعود الافراد جميعاً بمستوى واحد ، وبقدرة واحدة ، وبهذا فهم لا يستطيعون الاعتداء على غيرهم ، وتكون للجميع اهداف مشتركة ـ وهي الحياة المادية ـ ، ويعود المجتمع بشكل شركة واقعية لا يستطيع اي من المشتركين فيها ان يتحكم بالافراد الآخرين ، لأن وسيلة الضغط والشقاء هي الملكية وقد انزلناها .

والماركسية تقريباً تقول بمثل هذا الرأي ، وهذه المدرسة لا تعتمد مطلقاً على المسائل المعنوية ، ولا تتحدث عن الوجدان والوجدان الاخلاقي وامثال ذلك ، انها تعتمد فقط على الشيء الذي تعتقد انه سر الشرور والشقاء ، وانماط الظلم المختلفة ، والتعدي ، وهو الملكية ، فاذا قضينا على الملكية فقد قضينا على وسيلة الاجرام والتجني ، واذا ما انتفت الملكية الفردية وحلت محلها الملكية الاجتماعية ، وراح كل فرد يعمل بقدر ما يستطيع ، ويأخذ من المجتمع بقدر ما يحتاج فسوف يعم المجتمع الصفاء والعدل والاخلاق الحسنة ، وتنمحي اسباب العداء والنفور والعقد ، ويعيش الناس كأخوة متساوين .

وهكذا ، وبدون ان يلجأ هذا الاتجاه للمعنويات يعمل على ان يدير المجتمع بلا اعطاء اي دور للقيم المعنوية ، وهذا الامر ناقص وباطل ، وذلك لأن الواقع العملي اظهر ان المجتمعات التي ألغت الملكية لم ينعدم فيها الظلم والانحراف ، ولو كان ما يقولون صحيحاً لما عدنا نرى اي فساد فيها بعد وصولها للحياة الاشتراكية ، في حين اننا نجد هذه المجتمعات الشيوعية مبتلاة بين الحين والحين بأساليب التصفية وغير ذلك . . . ان سبب

ذلك يرجع الى ان الملكية ليست العامل الوحيد للحصول على الامتيازات .

ويتوضح ذلك بملاحظة ما يلي :

اولاً : ان الامتيازات ليست كلها امتيازات مالية فهناك امتيازات يقول بها الانسان لا ترتبط بالمال ، فالمرأة الجميلة لها امتيازها على النسوة الاخرى وهو امتياز حياتي لا ربط له بالمال ، بمعنى انه حتى لو كانت الملكية اشتراكية فان هذا الامتياز باق على حاله

والاهم من كل ذلك المقامات ، فقيمة المقام لدى البشر اعلى من قيمة المال وأكبر ، فهذا فورد اوروكفلر يسعى دائماً للاشتراك في انتخابات رئاسة جمهورية امريكا وهكذا نجد هذا الرجل ـ وهو اغنى اغنياء العالم ، او من جملة مجموعة تمتلك أكبر ثروة في العالم ـ نجده وحلم رئاسة الجمهورية يؤرقه ويكوي قلبه ، وهناك الكثيرون ممن يضحون بثروتهم ـ غالباً ـ لكي يصلوا الى الشهرة والفخر والرئاسة والقدرة وغير ذلك ، وذلك امر له قيمته ، ان يجد الانسان الاخرين يخضعون له اما من خلال ايمانهم وحبهم وتعلقهم به ، او خوفاً منه ومن سطوته .

فمثلاً الا يأمل الافراد ان يكون احدهم كالامام المرحوم البروجردي - (وهو احد كبار العلماء المحبوبين) والذي يحلم الكثيرون برؤيته ، ويقبلون يده بكل خشوع ، ويعطونه اموالهم ، ويفتخرون بجوابه على سلامهم ، أليست هذه قيمة للانسان ؟ وهل ان كل القيم تأتي من المال ؟

او في الطرف الآخر يصبح الانسان ملكاً يقف امامه مئات الآلاف من الجنود والضباط - ولو لخوفهم منه - فيستعرضهم ويقدمون عرضهم احتراماً له ؟

وعلى اي حال فمثل هذه الامور لها قيمتها لدى البشر ، ولو لم تكن كذلك لما ضحى الانسان في سبيلها بكل شيء . وهذه امور ليست بغير ذات بال .

وعلى هذا فجذور الاعتداء على حقوق الآخرين ، وسر الامتيازات ليست المال والثروة فحسب . على ان الاشياء الاخرى لا تقبل الاشتراك ليجعلوها اشتراكية .

ثانياً : عندما يكسبون امتيازاتهم بوسائل اخرى فانهم - حتى في تلك المجتمعات الاشتراكية - سيحصلون على المال والثروة ، وتكون فرصتهم في الحصول على هذه الامتيازات أكبر بلا ريب ، ففي روسيا مثلاً هل تساوى

خروشوف والفلاح الروسي من حيث المال والثروة ؟

وحتى مع كونه مندوباً للطبقة الفلاحية ، لكنه على اي حال يقطع الدنيا هنا وهناك في اضخم الطائرات مع ان ذلك الفلاح لم يتفق له في عمره كله ان وفق لركوب طائرة من هذه المدينة الى تلك .

فليس الامتياز الوحيد هو المال والثروة لتحل المشكلة عبر الاشتراكية في الثروة ، كما انه ليست استفادة الافراد من الثروة الاشتراكية على حد واحد مع اختلاف مقاماتهم .

وبالتالي فاذا ركزنا على اموال الدولة ـ وهي من الاموال العامة وليست ضمن الملكية الفردية ـ فهل يستفيد الافراد منها بشكل واحد ؟ كلا : فالمد ير العام ـ مثلاً ـ يستفيد من الخزينة العامة بعناوين مختلفة ، الامر الذي لا يمكن لغيره ان يفعله .

علاوة على هذا فان هناك امراً لا يخلو من اهمية بل هو الاهم مما سبق ، فالمجتمع الاشتراكي يحتاج الى انماط من الايثار والتضحية وغض النظر عن المواهب المادية . كأن يكون احدهم جندياً عليه الدخول الى ميدان الحرب والتضحية بالنفس ، وفي مثل هذه الحال لا معنى لتحكيم

المنافع المشتركة ، وانما يجب الاعتماد على المبادىء والعواطف وغيرها ليضحي الجندي بنفسه في سبيلها ، وهنا نجد اشد المبادىء مادية في حاجة ماسة للجوء الى نوع من المعنويات ولو على اساس جعل المسلك نفسه معبوداً ومحبوباً قيماً يضحي الفرد لأجله ، وهذا نوع من المعنويات .

ان مسلكاً يبني كل شيء على اساس الاشتراك في المنافع المادية والحفاظ عليها لا يمكنه ان يكون مسلكاً جامعاً ، بل لا يمكنه ـ اساساً ـ ان يكون مذهباً عملياً ولهذا فان لهذه الحاجات تطرح مسألة مجموعة من المعنويات . فسلوك القادة الماديين الشيوعيين ـ مثلاً ـ بالنسبة للشعارات والعلائم المتعلقة بالمذهب له حالة متميزة ، انهم يسلكون على النحو الذي يجعل المذهب فوق كل شيء في حين انه ـ وفقاً لما تبنّوه ـ لا يكون المذهب الا وسيلة للوصول الى المنافع الحياتية فانه ـ في التصور المادي ـ لا يعود المذهب الا خارطة يعمل المهندسون وفق مخططها لكي يتم البناء ، وليس لها في قبال البناء اي جانب تقديسي مطلقاً ، ان افضل الخرائط ينظر اليها نظرة ثانوية في قبال اصل البناء ، ولذا فلا يتصوران نضحي بالبناء في سبيل الحفاظ على الخارطة ،

لأنها هي بدورها لصالح البناء ، والمسلك المادي - في افضل حال - انما هو وسيلة لبناء المجتمع ، فلماذا تتحول المادة الى صنم يعبد ؟ ان الخارطة لصالح البناء ، والبناء بدوره لمصلحتي ، فلماذا أُضحي في سبيله ؟

ان هذا ممَّا لا معنى له ومع ذلك نجدهم ينظرون الى مذهبهم على انه وسيلة لبناء المجتمع من جهة ولصالح حياة الافراد من جهة اخرى ، وكأنه امر له قيمته وقدسيته وعظمته يفتخر الانسان بالتضحية في سبيله ورغم انه امر لا مبرر له ولكنهم مضطررون لهذا المعنى فهم يغرسونه في الافراد ولو بنحو التلقين .

وعلى هذا التصور وهو عدم استغناء اي مجتمع كان عن مجموعة من الاهداف المعنوية او (القيم المعنوية) - كما يعبر عنها حديثاً - يجب ان نعرف حقيقة هذه القيم المعنوية ، هل هي امور واقعية او هي مجموعة من التلقينات والخداع السذج ، تماماً كما يقال بالنسبة للوطن والشعب وأمثال ذلك حيث يطرحون هذه الشعارات الفارغة لخداع السذج البسطاء .

نعم يجب ان نعرف حقيقة هذه القيم المعنوية التي يعطيها الانسان قيماً عظمىٰ الى الحد الذي يضحي معه

بكل منافعه المادية في سبيلها ، وهنا يبرز هذا السؤال : ما هي (القيمة) ؟

ان الانسان يقوم بأعمال ارادية ، ولكل عمل اختياري هدف ، وعندما يستهدف الانسان شيئاً فان ذلك الشيء له اهميته وقيمته لديه بلا ريب ، سواء كان هذا الهدف مادياً او معنوياً ، بمعنى ان للهدف جاذبية للطبيعة الانسانية ، والا فمن المحال ان يتحرك ويسعى الانسان نحو هدف لا يجذبه اليه . فقد قيل ان العبث المطلق لغو ، واللغو المطلق محال صدوره من الانسان وكل ما نسميه عبثاً فقد يكون من حيث المبدأ الفكري والعقلي عبثاً ولكنه من حيث مبدأ آخر يصدر عنه ليس عبثاً فقوة الخيال ـ مثلاً ـ محرك نحو هدف ما ، ان قوة الخيال تصل الى هدفها بينما تعجز القوة العاقلة .

لا ريب في انه يكمن في الامور المادية شيء نافع لحياتي ، ولما كنت احب حياتي هذه حباً غريزيا وبالطبع ؛ فاني اتحرك باتجاهه ، لأن له قيمة لدي ، وان كانوا لم يصطلحوا بعد على اعطاء قيمة للأمور المادية ، ولكننا نقصد القيمة بمعناها الاعم من الامور المادية ، فالطبيب له قيمة لدي لأنه يساعدني في الخلاص من المرض ،

والدواء له قيمته ، والغذاء كذلك لأنه يحل محل ما يفقده الجسم من خلاياه .

بعد هذا نصل الى الامور المعنوية التي لها ما يوازيها من الماديات في الخارج ، فما هو الحال فيها ؟

ان الامور المادية هي الامور الجسمانية واقعاً والنافعة للجسم ، بأن تكون هي بنفسها من الاجسام مثل الغذاء ، او انها ليست بجسم ولكن الجسم وسلامته تتعلق بها كالرياضة ، ذلك ان الانسان يهتم بسلامة بدنه ، ولما كانت الرياضة توجب سلامته فهي ذات قيمة لديه . . اما عمل الخير ـ بالنسبة للآخرين ـ دون ان تكون فيه للانسان منفعة مادية ولكنه عموماً نشكل خدمة للمجتمع والجيل الآتي فما هو الموقف فيه ؟

كأن يشتغل انسان ما في مؤسسة ثقافية ، ويبذل جهوداً جبارة لكي يخدم الجيل الآتي من هذا الشعب ، وبشكل لا يعود على شخصه بأي منفعة ، بل له ضرر ايضاً لأنه يستهلك من وقته وعمله ويمنعه من الكسب الاكثر ، فكيف ندرس هذه الحالة ؟

ان مسألة المعنويات مسألة هامة في حياة الانسان ، وهنا يطرح هذا السؤال نفسه : هل ان الايمان بالامور

المعنوية ينحصر بـالايمان بـالله ؟ وهل ان الايمـان بالله يقـع في اول قائمة الايمـان بالمعنـويات ؟ او انـه لا مانـع من ان لا يكـون في البـين ايمـان بـالله ؟ في حـين تتحكم بـالحيـاة الانسانية مجموعة من القيم المعنوية .

هناك جملة وردت في كتاب (اصالة الانسـانية) لسـارتر نقـلاً عن داستـو يـوفسكي الكـاتب الـروسي المعـروف اذ يقول :

« ان لم يكن هنـاك واجب الوجـود فكـل شيء جـائـز » بمعنى اننا اذ نقسم الاعمال الى حسن وسيٍّء فنقـول : هذا فعـل حسن يجب فعله ، وهـذا قبيـح يجب تـركـه ، واذ تفـرض الجـوانب المعنـويـة ـ طبيعـة ـ ان تصـدق وان لا تكـذب ، وان لا نخون المجتمـع بل نخـدمه ، فهـذا كله تـابع لـلاعتقاد بـالله وواجب الوجـود ، فاذا لم يكن هنـاك واجب الـوجود فكـل شيء جائـز ، اي ان كل شيء مبـاح لنـا ولا معنى للمنـع والـردع ، ومـا ينبغي ومـا لا ينبغي فكلها تنتفي من قاموس الحياة ، فهل ان الامر كذلك ؟

هناك خصلة حسنة في فعال الماركسيـين ، وهي انهم لا يسعـون خلف المسـائـل المعنـويـة ولا يـدَّعـونها ـ لأنهم مـاديـون ـ ولا يتحـدثـون عن الانسـانيـة ، واذا ذكـروا

الانســانيـة السـالمة وضحــوا انهم يقصــدون المجتمــع الــلاطبقي ، لأن الانســان في نــظرهم امــا ســالم او ذو عيب ، فالناس لأجل الملكية والتفاوت الطبقي يفسدون ، فـاذا رفعنـا الملكيـة عـاد النـاس الى حـالتهم الاولى ، ولا كمـال آخر لـلانسان ، ولا مجـال آخر للــرقي والتكامـل في المجال المعنوي .

فيكفي الانســان ان لا يفسد بـواسـطة الملكيـة ، ان لا يكون عابداً للمال ، ولكن المذاهب المادية الحديثة نجدهـا مادية من جهة وتدَّعي الانسانية من جهة اخرى .

فمثـل سارتـر وغيره يبني مـذهبه عـلى الامـور المعنـويـة ويعتمد على مبدأ (المسؤولية) فكيف يكون ذلك ؟

انهم يعتقـدون من جهـة بــأن الانســان حــر وأن ليس هنــاك اي شيء يتحكم في مصيــره لا الهي ولا طبيـعي ، وان الارارة الانسانية لا ترتبط مطلقاً بالمـاضي ، فالانســان هـو الذي يصنــع نفسه ، لا البيئـة ولا القـدر ولا الله ولا غـير ذلك ، فهـو مسؤول عن نفسه ولأن كـل عمل يؤديـه الانســان يقوم بـه على انـه عمل حسن ـ وهـو امر صحيـح بمعنى ان الانســان حتى عندمـا يـأتي عمـلاً سيئـاً فـانـه لن

يفعله ما لم يعطه عنواناً حسناً ليقنع به وجدانه ـ ولو بلحاظ خاص ، انه يجعله مما ينبغي في وجدانه .

وعلى هذا فهو يقول ـ اي سارتر ـ ان كل عمل يختاره الانسان عمل جيد ، اي يدل ـ كما يصطلح عليه طلاب العلوم العقلية والنقلية ـ بالدلالة الالتزامية على انه حسن ، فعندما اقوم بعمل فكأني اقول للمجتمع بان عملي حسن ، ويجب عمله وينبغي ان تعملوا مثله . . . انه يقول : ان كل عمل جزئي يحمل في مضمونه طابعاً كلياً ، بمعنى ان اي عمل يؤديه الانسان بشكل فردي فانه يريد ان يقول للمجتمع ، هكذا يجب ان يكون العمل ، وعندئذ يجبر المجتمع على هذا السلوك ، بمعنى ان كل انسان يعتبر عمله نموذجاً يحتذى . فالانسان اذن مسؤول عن نفسه وعن الآخرين ، ذلك لأنه يعطي عمله قيمة ويراه حسناً . ومن هنا فهو يدعو الآخرين اليه ، وهنا يطرحون مسألة (المسؤولية) فيرون كل فرد في هذا العالم مسؤولاً عن نفسه والآخرين ، فنلاحظ الآن هذه المسؤولية : ما هي ؟ وما معناها ؟

ان المسؤولية ليست امراً مادياً ، انها امرٌ معنوي بالمعنى

غـير المادي ومن الـطبيعي ان نقـول : أن يصبـح الشخص مـوضعاً للتسـاؤل يتطلب البحث عن شخصيـة المحـاسب ومن هو ؟ يجب ان يجيب الماديـون على مثـل هذا السؤال ، فيقـولون مثـلاً ان للانسـان وجـدانـاً يحـاسبـه مثـل النفس اللوامـة في المنـطق الـديني ، وفي الـواقــع يمتلك الانسـان شخصيَّتين ، احداهما حيوانية والاخرى انسانية ملكـوتية ، فاذا قام بفعل قبيح ، عاتبت الشخصية الثـانية الشخصيـة الاولى ، ولكنهم ينكـرون مثل هـذا الوجـدان فـاذا لم يكن شيء من هـذا القبيل فـأين هو مـركـز المسؤوليـة ؟ وبغض النظر عن مركز المسؤولية ، فـاذا لم يستطيعـوا اثباتهـا فانهم يقـولون بهـا على أيّ حـال ، وكما قلنـا فان المسؤوليـة امـر معنـوي ، فأنـا مسؤول امام افـراد البشريـة ، وأنا مسؤول امام الجيل الآتي وأمثال ذلك ، ماذا يعني ؟

انهم يسلكـون مسلكـاً مـاديـاً ومـع ذلـك فهم يسعـون لـطرح الانسـانيـة والمعنـويـة لـلانسـان ، ويلزمـونـه بهـذه المعنـوية ، كـل ذلك بغض النـظر عن الايمان بـالله ، بـل نجدهم يقولون : اذا آمنا بالله ذابت كل هذه المعنويـات ، ذلك ان سرهـا جميعاً هـو حريـة الانسان ، فـاذا آمنا بـالله انتفت الحـريـة ، فـاذا لم تكن هنـاك حـريـة فـلا معنى

للاختيار ، وبالتالي فلا مجال للمسؤولية ولأنه لا يوجد في البين إلّه ، ولكون الانسان حراً فالمسؤولية غير موجود في حياة الانسان .

وهكذا نجدهم يسعون للاعتقاد بنوع من المعنويات المسلكية لا الفلسفية ، رغم ان مذهبهم مادي ، فهل ترى ذلك ممكناً ام لا ؟ قد يقول احد : ما المانع من ان لا نعتقد بالله مع الايمان بنوع من المعنوية ؟ ذلك لأن جذور المعنوية متوفرة في الوجدان الانساني ، بغض النظر عن منشأ ذلك سواء كان الصدفة او شيئاً آخر ، وعلى اي حال فهي موجودة في البناء الانساني ، فهي ليست إلّهية ، ولكنها موجودة ، بمعنى ان الانسان مهما كان يملك من وجدان فهو يلتذ بمجموعة من الاعمال الحسنة ، وينفر من مجموعة من الاعمال القبيحة ، ولذا فان الانسان يؤدي العمل لا لأجل منافعه المادية وانما لأنه يلتذ به ، وعليه فلذّات الانسان لا تنحصر باللذات المادية ، بل لديه لذات معنوية ، فهو يلتذ للعلم رغم ان لا يعود عليه بشيء . . . يلتذ لمعرفة التاريخ والاطلاع على احوال الماضين ، او الجغرافية او رؤية اعماق البحار ، رغم انه يعلم ـ على الفرض ـ ان هذه المعلومات لا تعود عليه بشيء من الفائدة ولا تضيف الى دخله المادي شيئاً ،

ولكنه يلتذ بهذه المعرفة ، انه خلق - على اي حال - بشكل يلتذ عند المعرفة .

كما انه خلق بشكل يلتذ معه بالامور الاخلاقية حتى ولو لم تعد عليه بأية منفعة مادية ، لأن الانسان يقوم بالعمل ليلتذ ، منتهى الامر أن هناك لذة مادية واخرى معنوية .

فهذا ابيقور - وهو من قدماء الفلاسفة - يعتبر من انصار اللذة ، اصالة اللذة ، وان كانوا يعبرون عنه عادة بأنه من انصار (اغتنام الفرصة) - كما جاء في التعبير المنسوب للخيام - ويقصدون الالتذاذ والتمتع الطائش الظاهري واغتنام اية فرصة في الاكل والشرب ، وأية لذة مادية ، ولهذا فقد عرف مذهب (اللامبالاة) بعد ذلك بالمذهب الا بيقوري ، الا انهم يقولون ان المذهب الواقعي لابيقور لم يكن كذلك ، انه لم يحصر اللذات باللذائذ الحيوانية ، وانما يعتقد بوجود مجموعة من اللذائذ المعنوية ، ويعتقد ان اللذائذ المعنوية أكثر دواماً واقل تألماً من اللذائذ المادية .

فما المانع من ان نقيم المعنوية على اساس الوجدان الانساني الملتذ بالاعمال الاخلاقية حتى لو لم يكن هناك

إلـه في البين ، فـالانسان ـ مثـلاً ـ يلتـذ بـالجمـال دون ان تكون له اية منفعة مادية تعود على جسمـه بالنفـع ، ونحن نجد الانسان يلتذ بمنظر باقات الزهور التي يـزين بها منـزله ولهـا قيمتها لـديـه ، في حـين ان المنـظر بنفسـه ليس مـادة يصل اليها الانسان ولا تعود عـلى الجسم بأيـة منفعة ، الا انه يعود على النفس الانسانية بالفـائدة والمتعـة ، فالانسـان اذن ينتفـع بها ويلتـذ ، وهكذا لـو كان هنـاك طائـر شجي الالحان يملأ البستان نغماً فان له قيمتـه لدى الانسـان ويلتذ بـه في حين انـه لا النغم امرٌ مـادي يصـل اليـه ولا ينتفـع جسمه به وان كانت نفسه تلتذ به .

وهـذا الكـلام ـ الى حـد مـا ـ صحيـح ولكن يـواجـه اعتراضين : .

الاول : ان مثـل هذه الانمـاط من الوجـدانيـات ليست قوية الى الحد الذي يمكن ان يبنى عـلى اساس منـه مذهب يستطيع ان يصل برنـامجه التـربوي الى الحـد الذي يضحي فيه الانسان بمنافعه للصالح العـالم ، او الى المستوى الـذي يضحي الانسـان فيه بنفسـه في سبيـل ذلـك ، كـلا فليس يمتلك هذا المستوى من التأثير .

وفي الـواقع ان الانسـان اذا كان يؤدي عمـلاً للذة فقط

ولـو للذة المعنويـة فانـه يقف عند حـد الموت ؛ وقـد يصل الى حد الرضوخ للسجون المتوالية فيصبح الامر لديه عـادة وتفننا ، ولكنه لا يستطيع ان يشكـل حاجـة بشريـة عميقة وهي التي يحتـاجها المـذهب التربـوي لكي يـدفـع الافـراد المعتقـدين به الى (التضحيـة) و (الفداء) ، تمـاماً كـما لا نجد في العالم انسـاناً يضحي بنفسـه في سبيل بقـاء باقـات الـزهور في بيتـه ، ذلـك انـه يـريـد الـزهـور ليلتـذ بهـا لا العكس ، وهكذا بالنسبة للتعاون الذي يبديه للآخـرين ، فاذا افترضنـا انه يلتـذ بهذا العمـل ولذا يقـوم به ، وولاؤه لمثل هذا العمل هو بمقدار التذاده بـه فانـه سوف لن يقـدم على التضحية بنفسه في سبيله لأن ذلك لا معنى له .

فصحيـح اذن أن الانســان يلتــذ في عمق وجـدانـه بـالاعمال العـامة والحسنـة ، والقرآن الكـريم نفسه يقبـل هـذا الوجـدان ولكن هذا المقـدار من الـوجـدان لا يكفي لأن يشكـل اساسـاً وخميرة لمـذهب ما . فحـاجـة المـذهب لـلايمان بـالمعنويـة هي بمستوى اعـلىٰ بكثير واسمىٰ ، فـاذا قـال احـدهـم مثـلاً : « ان الحسـين انـطلق الى كـربــلاء وضحىٰ بنفسـه وشبابـه وقدم نسـاءه واطفـالـه لـلأسر لأن وجدانه كان يلتذ بـالخدمـة التي يقدمهـا للناس » كـان هذا الكـلام بـاطـلاً ، ذلـك ان اللذة تعـود في النهـايــة لنفس

الانسان وبالتالي فهي لا تنسجم مع فقدان الذات .

الثاني : ان لم يكن هناك اله في العالم ، ولم يكن هناك اي هدف لهذا النظام ، وان لم تكن هناك اية رابطة باطنية بين الاشياء والافراد فبالامكان ان يقال ان هذه اللذة التي عُجنابها هي مجرد غلط في الطبيعة ، فهي امر موجود فينا لكنه اشتباه طبيعي محض ، ذلك ان اية لذة من اللذات المادية انما هي لأجل الحاجة الطبيعية لها لا غير .

يقول شوبنهارو : « ان الطبيعة لكي تخدع الافراد وتقودهم الى مقاصدها عجنت الانسان بلذائذ ، وهي بالتالي تخدعهم وترسلهم خلف مقاصدها واهدافها » .

فالطبيعة ـ مثلاً ـ تستهدف ان يبقى النسل الانساني . فاذا راحت تأمر الانسان بأنه لكي يبقى النسل ، عليك ان تمتلك عائلة وتعيلها كادحاً ، فان الانسان العاقل لن يفعل ذلك ولكن لكي تخدع الانسان وترسله خلف مقاصدها فقد غرست في اعماقه اللذة لينطلق بنفسه برغبة واختيار وبكل شوق نحو الزواج ، فعلى اي حال كل لذة تنبع من حاجة ، فاذا كنا نلتذ بطعام فلأن طبيعتنا تحتاج اليه ، واذا لم نكن نلتذ لم نقدم على

الاكل ، واننا نلتذ بشرب الماء لأن طبيعتنا تحتاجه وهكذا نلتذ بالنوم فكل لذة هي على اساس حاجة واقعية وكذلك كل الم يقوم على اساس مانع طبيعي .

ففلسفة اللذائذ المادية واضحة ، وهي اعمال حكيمة في الطبيعة ، ولكن ما هو الحال بالنسبة للذائذ المعنوية ؟

لماذا التذمن شبع طفل يتيم وما علاقة ذلك بي ؟ انه يلتذ فلماذا التذُّ أنا ؟ ان هذا الالتذاذ شيء شبيه بالخواء واللغو ، بمعنى انه لا حكمة وعلة لذلك في وجودي انا ، فهي بلا دليل ، فاذا قلنا بوجود نوع من الروابط والعلائق في نظام العالم والخلقة فهو يعمل على اساس من الحكمة ، كانت هناك بيني وبين الافراد الآخرين علاقة في اصل الخليقة ، وكنا جميعاً اعضاء لجسم واحد ، ولذا فأنا اسعى نحو هذه اللذة . انني سوف لن اسعى خلف امر باطل هراء وانما اسعى على اساس مبدأ متقن في الخلقة ، اما اذا كانت هذه اللذة بالصدفة ، كأن أكون قد خلقت صدفة بنحو يجعلني التذ من ايصال الخير للآخرين ، حتى ولو لم تكن هناك اية فلسفة من هذا الالتذاذ ، فان الامر بالتالي ينتهي الى الخواء واللغو ، بمعنى ان الطبيعة لم تكن ذات هدف في غرسها هذه

اللذة ، وهـا انـذا أضحي بنفسي مثـلاً ـ وانـا جنـدي ـ للوطن لأني التـذ بذلـك ، ولكن ما هي اللذة نفسهـا ؟ لا أدري . . . ولكني هكذا بنيت تماماً كأن يولد الانسـان وفي يديه اصـابع ستـة ، فالـطبيعة في هـذه الحال قـامت بعمل خـاطىء لا معنى له ، وعمـلي انا بـالتبع ممـا لا معنى لـه ، وهذا في الواقع ليس قيمة ولا هدفاً .

ان الشيء الـذي يكمن فيـه هـدفي والـذي يقـوم عـلى اساس من لذة غرست خطأ في اعمـاقي فهي بلا هـدف ، لا يمكنـه ان يخلص حيـاتي من العبثيـة ، فنـحن اذن في نفس الـوقت الـذي نقـول بـالـوجـدان الاخـلاقي ، وان الانسان يلتذ بـالفطرة من العمـل الحسن وينفر من العمـل القبيـح ، فاننـا نؤمن بأنـه لو لم يكن في البـين إلّـه وخلقـة هادفة فان عملنا سوف لن يتخلص من العبث مطلقاً .

انني اعتقـد ان الـوجـدان خلقـه الله من اعمـاقنـا لكي نقوم بأعمال هادفة ، انني انا وهـذا اليتيم وهذه العجـوز ـ اعضـاء في متن الخلقـة لجسم واحـد ، وأجـزاء لخـارطـة واحدة ، واطروحة معينة نتبع مشيئة ازليـة واحدة ، ونسـير نحـو حكمـة واحـدة ، فنحن اذن نؤمن هـدف الخلقـة وهـدف خالق الخلقـة ، وعندئـذ فان هـذا الامـر المعنـوي

ليس عبثاً وانما هو حقيقي واقعي ، وعلى هذا فان اي مذهب او نظام فكري واجتماعي محتاج الى مجموعة من المثل المعنوية ، ولهذا نقول ان الايديولوجية بحاجة الى القيم فوق المادية ، وان هذه القيم يجب ان تكون اقوى اذا امتلكت نوعاً من القدسية ، وعلاقة التقديس في امر ما هو ان يراه الانسان امراً يضحي لأجله بنفسه فداء اله .

فكل مذهب يحتاج الى مثل هذه الاهداف والقيم المعنوية ولا يكفي مجرد الاشتراك في المنافع ، ولا يمكن اقامة مذهب انساني جامع على اساسها ، كما تقوم الماركسية على مثل هذا الاساس .

وكذلك فانه لا يمكن ـ بدون الله ـ ان توجد مثل هذه المثل القيمة للانسان .

ان المذهب الذي يدعي على لسان الشاعر :

ان السحاب والضباب والشموس والقمر .

تسعى لكي تأكل خبزاً ضمن وعي وبصر .

ويقول ـ كما جاء في القرآن الكريم .

﴿ الم تـروا ان الله سخر لكم مـا في السماوات ومـا في الارض ﴾[1] .

إنه يلقي عبء المسؤولية عـلى كل ذرة ، ويـرى ان كل شيء في الخلقـة خلق لسبيـل خـاص ، وكـلٌ مسؤول عن عمـل ، فـالشمس لهـا عمـل ومسؤوليـة ، وهي تقـوم بعملها ، والسحاب المتحـرك يقوم بـأداء واجبه ، فحـركته تعني القيـام بمسؤوليتـه ، وحـركـة الهـواء تعني القيـام بواجب ، وكذلك ان تقوم الشجرة بالاثمار .

هـذا المـذهب يجعـل الانسـان مسؤولاً ، ان الانسـان موجود مسؤول في بحرٍ من المسؤولية .

اما المذهب العـاري من الهدف والغـاية ولا يعتقـد لأي مـوجود بمسؤوليـة ، وعندمـا يصل لـلانسان فقط يجعـل له وظيفـة وواجبـاً بحيث يشعـر الانـسـان واقعـاً بـأنـه مسؤول . . . مسؤول عن نفسه والآخرين . . . وعليـه ان يضحي في سبيـل هـذه المسؤوليـات والمعنـويـات ، هـذا المذهب سخيف بلا ريب .

والا فلماذا هذه التضحيـة وعلى اي اسـاس ؟ ان اقصى

---

(١) لقمان : ٢٠ .

ما يمكن ان يقال : **انه يفعل ذلك للالتذاذ** ، وهي لذة عبثية تقوم بها الطبيعة هباءاً .

وعلى هذا فلا يمكن لأي مذهب ـ دون الاعتقاد بحكمة الخلقة ـ ان يصل الى الايمان بالقيم المعنوية ، في حين ان مثل هذه القيم هي من ضروريات اية حركة يريد ايجادها ، ان الهدف يعني منتهى الاماني ، بمعنى ان لا تكون الحياة الفردية منتهى امله ، وانما هو الاعمال الكبرى .

فهذا رجل يتزوج حديثاً ويعمل على تشكيل عشه العائلي يأتي الى الرسول الاكرم (ص) ويخبره بأنه يتمنىٰ الشهادة ويطلب من الرسول ان يدعو الله ليرزقه الشهادة .

ان المذهب يمنح الانسان شأواً بعيداً من الاهداف بحيث يسعى نحوها ويطلب الشهادة في سبيلها ، ومثل هذه الاهداف الكبرى لا يمكن ان تنسجم مع هذه التحليلات السخيفة ، فلا يمكن ان يصنع الانسان هكذا . فبدون المثل العليا لا يستحق أيُّ مذهب تربوي ان يطلق عليه اسم (المذهب) .

الدرس الثالث

المذهب والنظرة الكونية

ويمكن التعبير عما سلف بنحو آخر فيقال :

ان المذهب الاجتماعي الكامل ، والايديولوجية الصحيحة يحتاجان الى (نظام فكري وفلسفي) كما يحتاجان الى عنصر الايمان .

أما النظام الفكري الفلسفي فهو يشمل نظرة كونية محكمة ، وموقفاً منطقياً خاصاً مجهزاً بالاستدلال القوي حول العالم ، منظماً تنظيماً شاملاً ترابط الاجزاء .

أما معنى امتلاك عنصر الايمان فهو ان يمتلك المذهب القدرة على ايجاد الحب والعلائق القلبية الحارة بين اتباعه

واهدافه ، والهدف الاسمى الذي يفوق اية مصلحة فردية وشخصية .

والنقص الذي يلازم بعض المذاهب الاجتماعية بل يتوفر في اغلب المذاهب الاجتماعية اليوم كالمذهب الوجودي ، هو أنهم يسعون لطرح الايديولوجية مجردة من الايمان ، اي من دون شيء هو فوق الانسان يعشقه الانسان ويحبه فهو في الواقع ، وبنحو ما ـ مورد لعبادة الانسان انهم يريدون ان يوجدوا المذهب على اساس من الفلسفة المحضة ، وهو امر لا يكون ، ذلك ان الايديولوجية لن تكون ايديولوجية انسانية كاملة اذا قامت على اساس من فلسفة محضة مجردة من الايمان والعشق والحب لهدف اسمى واعلى .

وربما رأينا الامر شبه دوري (توقف الشيء على نفسه) ، فمن المعلوم انه اتباع للخيال ان يستفاد من قوة الخيال البشري ، فيجعلون الايديولوجية موضوعاً للايمان لأنهم يحسون بالخلأ ، والايديولوجية نفسها يجب ان تعتمد على الايمان ، الايمان بهدف اسمىٰ .

هذا في حين ان الايديولوجية شيء يجب ان يشتمل على الايمان ، اي اطروحة تشتمل على ايمان ، ولأنها

مشتملة عليه فهي مقدسة ، اما لو لم تكن بنفسها كذلك وكانت مجرد نظام فكري واريد لها ان تكون موضوعاً للايمان ، اي اريد للأفراد انه يعشقوها ويحبوها ويؤمنوا بها ، فهذا هو الامر المجانب للمنطق ، أي انه امر يراد القاؤه وتلقينه وتعميقه بالقوة ، وهذا ما قد يحصل ولكنه على أي حال بلا اساس منطقي معتدٍّ به .

ونحن الآن نستذكر بعض الملاحظات الماضية حول المذهب :

« ان المذهب عبارة عن نظام فكري وعملي موحد » بمعنى انه ليس نظاماً فكرياً نظرياً صرفاً يتعلق بالعلوم النظرية وليس في ما ينبغي فعله .

وحسب الاصطلاح الفلسفي المتداول بيننا فان المنهج الفكري النظري يعني التفكير في ما هو كائن ، كأن نقول فرضاً « ان فيزياء ارسطو نظام فكري نظري بمعنى انه نوع من التفكير في ما هو واقع وفي كيفيته » او نقول : « ان فيزياء نيوتن هي نظام فكري نظري آخر حول ما هو كائن » .

أما النظام الفكري العملي فهو يعني النظام الفكري الذي يدور حول ما ينبغي .

والحكمة في اصطلاح القدماء تقسم الى نظرية وعملية ، فالنظرية تعني الحكمة والادراك الصحيح لما هو كائن ، والعملية تعني الادراك الصحيح والواقعي لما ينبغي ان يكون .

وعلى هذا فالمذهب الذي هو نظام واحد فكري وعملي يعني النظام الفكري الدائر حول ما ينبغي ان يقع . فما يطرح يدور حول ما هو الافضل ان يكون ، وهذا يعني بالطبع البحث حول ما ينبغي ان يكون عليه الانسان وكيف يجب ان يكون الرد او المجتمع .

وهنا يجب ان نضيف كلمة اخرى عندما نتحدث عن المذهب الاجتماعي ، فنقول : « ان المذهب الاجتماعي عبارة عن نظام فكري اجتماعي علمي واحد ، لا مجموعة من الافكار غير المتناسقة والتي لا تشكل جهازاً واحداً » ، فلنلاحظ اي جهاز مصنوع ، انه مشكل من مجموعة اجزاء لكل منها عمل معين ومحل مشخص ان البناء يشكل جهازاً واحداً لأن كل جزء منه يؤدي وظيفة خاصة والمجموع يؤدي هدفاً واحداً ومن هنا نقول : ان الافكار المتفرقة لا تشكل مذهباً ومدرسة لأنها لا تؤدي الى وحدة متكاملة ، وجهاز واحد .

فمجموع الافكار المتناسقة التي ترتبط بالحياة العملية ـ بما ينبغي وما لا ينبغي ـ يُشكل مذهباً يقوم على اساس من الافكار النظرية ، وهذه الافكار تشكل روحاً لهذا المذهب ، ومن هنا قلنا ان الايديولوجية يجب ان تقوم على اساس من نظرة كونية ، فالنظرة الكونية هي : نظرة للكون كما هو كائن ، والايديولوجية هي نظرة الى الانسان كما ينبغي ان يكون ويصنع .

ان اساس اي مذهب ومادته الاصلية هي الروح التي يجب ان تمنح جميع الاجزاء وحدتها ، وتحولها الى جهاز واحد وجسم واحد ، أما الاشياء الاخرى فهي بمنزلة الاعضاء والجوارح الرئيسة وغير الرئيسة ، وحتى ان بعضها بمنزلة الشعر الذي ينبت على الجسم ، اي هي الى هذا المستوى من عدم الاصالة ، تماماً كما نقول في السلوك هذا لازم وهذا غير لازم ، وهذا مستحب وذاك واجب ، والفكرة الوحيدة التي يمكنها ان تشكل روحاً للمذهب هي تلك التي تشكل ـ من جهة ـ الاساس النظري الكوني لهذا المذهب ، اي تعطيه نظرته وموقفه ، وتقييمه للوجود ، ومن جهة اخرى تمنحه هدفه ، وهذا هو ما أكدناه من قبل من ان الايديولوجية يجب ان تمتلك اساساً فلسفياً واساساً ايمانياً .

والمقصود بالاساس الفلسفي : **الاساس المنطقي** الذي يثبت له ما هو واقع بالمنطق والاستدلال ، اما المقصود من الاساس الايماني فهو ان يقوم المذهب بعرض شيء يشكل موضوع الايمان وموضوع الهدف الكبير ، اي يشكل معشوقاً ومحبوباً له ، ويحرك البشر نحو هذا المعشوق والمحبوب ، فيجب اذن ان يمتلك فلسفة ومثالاً اخلاقياً ومثالاً اجتماعياً .

ان الطاقة للنظرة الكونية هي قدرتها على صياغة المثل الاعلى ، والا فمجرد كونها نظرة للكون لا تحرك الطاقات ، تماماً كأن تقوم أكبر مدرسة في علم الفلك والنجوم بعرض المسائل الفلكية فتحصل في قبال ذلك على مجموعة من المعلومات عن العالم ، دون ان يكون لذلك اي تأثير في خلق رابطة بينها وبيننا ، بمعنى انه سواء وجدت هذه النجوم ام لم توجد فلا تأثير لذلك على حياتنا أو هدفنا .

ان (التوحيد) له هذه الخصيصة فهو ـ من جهة ـ اساس فلسفة كونية ومادتها الاساسية وموقف من الوجود ككل ، ومن جهة اخرى نوع من المثل الاعلى ، وهذا ما نجده بالضبط في كلمة (لا إله الا الله) فجانب النفي

(لا إله) يعطينا المفهوم الفكري وفي جملة (الاثبات) يبين مفهوم اصل الوجود .

وقد كان قدماؤنا يعبرون بتعبير متميز فيقولون .

ان التوحيد على اقسام :

فهو توحيد في الذات ، وتوحيد في الصفات ، وتوحيد في الافعال ، وتوحيد في العبادة .

فالتوحيد في الذات يعني الاعتقاد بوحدانية الذات الالهية (ليس كمثله شيء) .

والتوحيد في الصفات يعني ان ذاته لا تغاير صفاته ، وليست هناك اية صفة هي غير الصفة الاخرى ، فهو في عين البساطة والوحدة . . . له كل الكمالات بنحو البساطة والوحدة :

وكذلك التوحيد الافعالي : كل هذه افكار نظرية فلسفية تقول كلها انه هكذا ولكننا نجد الى جانبها :

التوحيد في العبادة ، فهو يؤكد بأن الله يجب ان يعبد لا غير ، انه اهل للعبادة ، وان عبادته تمتلك جذورها في الروح والنفس الانسانية ، ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله**

اسلم من في السماوات والارض ﴾[1] .

ان عبادتنا التي نؤديها هي في الواقع نوع من التسليم والتبعية الاختيارية لعبادة تكوينية تقوم بها كل الموجودات **﴿ يسبح لله ما في السماوات وما في الارض ﴾**[2] **﴿ سبح لله ما في السماوات وما في الارض ﴾**[3] **﴿ ولله يسجد من في السماوات والارض ﴾**[4] .

ومن هنا فما يدعونه باسم (التوحيد في العبادة) يعني ان الذات الإلهية هي المثل الاعلى للبشرية .

فكما ان الذات الالهية واحدة لا مثل ولا كفء لها . وكما انه لا تركيب في ذاته .

وكما انه مبدىء الكون الوحيد فهو الذات الواحدة التي يجب ان يعبدها الانسان ، والمؤهلة للعبادة .

وهذا ما نعنيه من ان التوحيد يملك الخصيصتين معاً ، فهو من جهة نوع من النظرة ونوع من التقييم للوجود

---

(١) آل عمران : ٨٣ .

(٢) الجمعة : ١ .

(٣) الحديد : ١ .

(٤) الرعد : ١٥ .

ومن جهة اخرى هو هدف اعلى للبشر .

اما الماركسية فليست كذلك ان النظرة الماركسية للكـون نظرة كونية ماديـة ، والنظرة الكـونية المـادية مـوقف وتقييم للوجـود وفلسفة لـه ، لها أثـرها بـالطبـع في توجيـه الحيـاة والمعيشة فيها ، ولكنهـا ليست بنفسها ، مثـلاً ساميـاً ، ان المـاركسية لن تمنـح البشريـة مطلقـاً هدفهـا السـامي ، ان الهـدف الـذي يمكنهـا ان تعـرضـه للبشـريـة هـو الجـانب الاقتصــادي لا المـادي بمعنى ان المــاركسيـة الاقتصــاديـة تعـرض امام البشـرية هـدفاً ، ولكنـه ليس هدفـاً انسـانيـاً سامياً انها تعـرض امام الـطبقة المحـرومة منـافعها كهـدف سام وتقول لهـا : ايتها الـطبقة المحـرومة اسعي للحصـول على حقوقـك . أنَّها لا تتجاوز هـذا الحد ، فهي من حيث طرح الهدف السامي ايديولوجية ناقصة ، لأن هذا الهـدف انمـا يؤثر اذا لم يصـل الانسـان اليـه ، فـاذا وصـل يكـون الموقف ؟ وسوف تصل الطبقـة المحرومـة اليه بسـرعة ، اذ بمجـرد القضاء عـلى الطبقـة الحاكمـة ونـزولهـا عن عـرش استبدادها فان الهدف سوف ينتهي وتتم الايديولوجية .

هـذا عـلاوة عـلى ان المعنى لا يمكنـه ان يــطرح نفسـه كهـدف مقدس ، ان الهـدف المـادي مـادي مئـة بـالمئـة ،

وليس هدفاً يتجاوز الابعاد الانسانية ، ولذلك فان التضحية في سبيل هذا الهدف سوف لن تكون منطقية لأنها تتضاد والهدف إنه يسعى للحصول على المنفعة في حين يطلب منه ان يضحي بتمام وجوده ، فما قيمة هذا الهدف الذي يفقد نفسه في سبيل تحصيله ؟

ان الماركسية بنفسها ليست هدفاً سامياً ، وانما هي في الهدف مذهب بل مثل اعلى ، وهي رجوع الى الغرائز الفردية ، وهذا يعني ان ما هو المادة الاساسية للنظرة الكونية فيها هو بنفسه ليس فكرة وهدفاً فردياً او اجتماعياً .

ان القوة الماركسية تتوفر في كسر القيود وتحطيمها ، ولكنها لا تستطيع بعد ذلك ان توجه كل شؤون الحياة التي تعم الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية اللهم الا باسلوب غير مباشر ، وحينئذ فـ (العدالة) و (الاخلاق) يفقدان مفهومهما الواقعي .

وبعبارة اخرى فان روح المذهب ، هي تلك التي تصوغ المذهب ـ عبر نوع من الارتباط العلي والمعلولي ـ والمؤثر أكثر في هذا الارتباط هو الهدف والمثل الاعلى الذي يعطيه المذهب ، ولهذا نجد أنه ليست كل نظرة كونية ـ

مهما كانت ـ صالحة لتشكيل روح المذهب ، فان بعض النظرات لا تملك الهدف السامي .

ان الانسان في بنائه الحياتي ينظر للمستقبل ، لا الى الحال او الماضي ، فما هو العالم وكيف كان ويكون ؟ لا ربط له بمسألة : ما الذي اعمله لكي احصل على عالمي المثالي المطابق لميولي ؟ وبعبارة اخرى فالفلسفة ليست كافية لوحدها ، كما ان هناك فرقاً بين النظرات الكونية من زاوية اخرى ، وهو ان بعضها يوجد نوعاً من الالتزام ، الامر الذي لا يوجده البعض الآخر .

ان النظرة الكونية التوحيدية توجد الالتزام وتفرض المسؤولية ، خلافاً للنظرات الكونية غير التوحيدية ، فاننا مهما فكرنا في كيفية اداء الوجودية الى الالتزام فاننا سوف لن نصل الى نتيجة ، لأنها لا تملك اساساً وقاعدة ، انهم يتحدثون كثيراً عن الالتزام والمسؤولية ولكنا لا نعلم اين هي القاعدة التي يبتني عليها الالتزام هذا ، انا مسؤول عن نفسي ، ذلك فقط لأني حر ، ان هذه الحرية لا تعني أكثر من ان الآخرين ليسوا مسؤولين مقصرين ، فلو كنت مجبوراً فلست انا المقصر وانما الآخرون ولكني عندما أكون حراً فما الموقف .

وطبيعي ان الحرية التي يطرحونها لا مفهوم لها اساساً بل هي مغلوطة مئة بالمئة ، لأنها تعادل الحرية التي يقول بها الاشاعرة عندنا والذين ارادوا ان يثبتوا ان الارادة الانسانية حرة تماماً ولا ربط لها بأي شيء وتتوجه لهذا الكلام اعتراضات هامة ، ولكن لنفرض بأني حر ولا تحكمني اية جبرية فلا توجد طبيعة انسانية لها لوازمها ولا يوجد جبر بيئوي كما لا يوجد جبر إلهي ، وكنت مطلق الحرية وحينئذ يقول هؤلاء : انا مسؤول عن نفسي ، والحد الاعلى لهذا الكلام هو ان يقصد انه ليس هناك اي عامل مقصر تجاهي فاذا شقيت فانا المقصر ، ولكن هل يعني هذا ؛ المسؤولية امام الآخرين ! لأقول بعد ذلك : انني مسؤول ان اختار شيئاً ، اختار وجوداً ينفع الآخرين ايضاً .

انهم يريدون ان يلقوا مسؤولية الآخرين على عاتقي ، ولكن من اين ينبع هذا الاحساس بالمسؤولية في اعماقي ؟ فاذا قيل : انني اؤثر في الآخرين ؛ فليكن الامر كذلك ولكن المسؤولية شيء آخر ، ذلك ، ان الآخرين احرار ايضاً ، وتلك الحرية المطلقة لا تنسجم مع المسؤولية تجاه الآخرين .

ان مثل هذه الحرية التي يطرحونها لا يمكن ان تكون نموذجاً فكوني حراً يعني اني مسؤول عن نفسي ، ولأن اي طريق اختاره يعني انه حسن ويتضمن بالملازمة ـ كما يصطلح ـ ان تختاروه ، بمعنى اني أمنح طريقي الكلية المطلوبة ، واقول انه الطريق الحسن ليس لي فقط وانما للجميع فانا ادعو الآخرين الى هذا الطريق .

وكما قلنا فان الآخرين احرار ايضاً وليس هناك اي عامل يرجح ارادة احدهم على ارادة الآخرين ، كأن يؤثر مثلاً في اختيارهم .

ثم : لنفرض اننا قبلنا هذا الامر وهو الى هذا الحد صحيح (وكونوا دعاة الناس بغير السنتكم) فما أفعله يعني انني اراه حسناً واشجع الآخرين على العمل به ، فأنا أؤثر في اختيار الآخرين ، ولكن هذا التأثير في ارادة الآخرين شيء غير الاحساس بالمسؤولية ، ذلك لأن هذه المسؤولية يجب ان تتوفر اولاً في وجداني .

ان كوني مؤثراً ليس أكثر من كوني مدركاً بأني سبب شقاء الآخرين ، ولكن ذلك لا يوجد اي التزام او مسؤولية تمنعني من العمل ضدهم ، فأقول : لأني مسؤول فسوف لن افعل ذلك لأنه من الذي سيحاسبني ؟

هل ان هناك إلهاً يحاسبني ؟ انه يرفض ذلك . هل الوجدان وهو ايضاً يرفض وجوده ، فمن سيكون المحاسب اذن ؟

اما النظرة الكونية التوحيدية فهي لهذا السبب تقدم المثل السامي ، وتزرع المسؤولية ، وهي بعد هذا هادية بمعنى انها ترسم الطريق امام الانسان ، وتوضح اسلوب الوصول الى الاهداف ، وهي بالتالي تبعث الحماس وتطمئن القلوب وتبعث نحو التضحية والفداء .

وهناك حقيقة اخرى :

فكما ذكر العلامة الطباطبائي (صاحب التفسير الرائع : الميزان) فان مبدأ استحالة اجتماع النقيضين ، هو مبدأ تنتهي اليه كل القضايا ، وبدونه لا يحصل اي يقين بأي مبدأ ، او على الاقل فان اليقين بأي اصل لا ينفي احتمال اي اصل مخالف له ما لم نؤمن بمبدأ استحالة اجتماع النقيضين ، نعم ، كما ان الامر هنا بهذا النحو فان مبدأ التوحيد له هذه الصلاحية لأن يروي جذور كل شيء كالماء تماماً ، ويوصل المدد لكل الاجزاء في البناء العام كالدم بالنسبة للجسم ، ويبعث الحياة في كل الجهات ويحركها تماماً كالروح .

وفي مجال المثل السامي ، نجد سارتر وغيره يطرحون بعض الآراء ، فيقولون « ان على الانسان ان لا يقف عند حد معين بل يتقدم دائماً ويقتحم كل الحدود ويغير اطروحاته ، فاذا وصل الى هدف ، تجاوزه الى آخر ، وهكذا يمضي الى الامام » بمعنى ان الحركة اللامتناهية غير واضحة عند بدء المسير ولكنه ما ان يتحرك باستمرار حتى تتفتح امامه الآفاق افقاً ولكنه لا يعلم شيئاً عن الهدف النهائي بل لا يعرفه ابداً لأنه لا يريدان يصل الى نقطة ثابتة يعتبرها موتاً له .

اما في التوحيد فاننا نجد الهدف منذ البداية ، واضحاً مشخصاً ولا متناهياً في نفس الوقت ، وهذا أمر له اهميته الخارقة ، ذلك ان ذات الهدف ، لا متناهية ، فهو دائماً هدف جديد ولا يبلىٰ مطلقاً .

وعلى هذا فليست اية نظرة كونية ـ مهما كانت ـ صالحة لأن تشكل اساساً وروحاً للمذهب الحياتي بحيث تكون له هدفاً اسمى ، كما تعطي طاقته المحركة سواء من زاوية تعيينها للهدف او من حيث زرعها للمسؤولية ، فتكون بذلك ، قوة محركة ، ومنبعاً للمسؤولية ، وهاديةً لسبل الوصول الى الاهداف ، وبالتالي تكون باعثة على الحماس

والتضحية ، ومغذية لكل أجزاء البدن ، ومحافظة على حياتها ، وبالتالي نافذة الى الجميع نفوذ مبدأ الاستحالة الى كل المبادىء ـ كما اسلفنا ـ

ومن هنا فاننا نعتقد ان النظرة الكونية التوحيدية هي وحدها التي تمتلك كل هذه الخصائص في آن واحد .

الدرس الرابع

الايمان والكمال الانساني

هناك مسألة اساسية تناسب بحثنا هذا وهي :

ما هي حقيقة الايمان المطروح في الاسلام والذي يلوح لنا في شتى الآيات القرآنية فيشكل محور المسائل كلها ؟

طبيعي ان الايمان يكون بالله في الدرجة الاولى ، وبعد ذلك بالامور الاخرى التي يطرحها القرآن الكريم (الملائكة ، الكتب ، الرسل ، اليوم الآخر ، وغيرها) فهل ان الايمان ـ اساساً ـ هدف للانسان بنفسه ، او وسيلة ؟ بمعنى ان الانسان يجب ان يؤمن ، والاسلام يريده مؤمناً لهدف آخر ، او ان الايمان هو الهدف ؟

يجب ان لا يغيب عن البال ان المقصود هو الهدف

الانساني ، ولسنا نقصد ان الايمان هدف لله او وسيلة لتحقيق الاهداف الالهية ، كلا فان الاهداف كمالات واهداف للانسان نفسه .

فهل الايمان ، بنفسه ، كمال للانسان ؟ وهل ان الدعوة اليه بنفسها من جهة كونه كمالاً للانسان ، وان الكمال الانساني يكمن في ايمانه ؟ او أنه دعي الى الايمان لوجود الآثار المترتبة عليه ، وهي آثار لصالح الانسان ؟ فالايمان شيء نافع للانسان وله آثاره الحسنة ، واذا اردنا ان نستعير التعبير الفلسفي قلنا :

هل الايمان خير للانسان او نافع له ؟

ذلك ان هناك فرقاً بين الخير والنافع ، فالخير هو ذلك الشيء الذي هو كمال مطلوب بذاته ، اي يريده الانسان لذاته لا للحصول على شيء آخر ، أما النافع فهو شيء حسن لترتب الآثار الحسنة عليه ، فهو مقدمة للخير وليس الخير نفسه .

وهذا الموضوع يجب توضيحه تماماً في المعرفة الاسلامية باعتبارها ايديولوجية ومذهباً حياتياً ، فماذا يرى الاسلام ؟ هل يرى الايمان بنفسه هدفاً ومطلوباً وخيراً له

بغض النظر عن اثر من آثاره ، (ولنفترض ان هـذه الآثار التي نعرفها له غير مـوجودة) ؟ ام يـرى ان الخير هـو شيء آخـر ، وان الانسـان دعي لـلايمـان بـاعتبـاره مقـدمـة الخيـرات ؟ اننـا عنـدمـا نبحث عن الايمــان ، نبحث عن آثـاره دائـماً فيقـال إنَّ الانسـان اذا آمن اطمـأن قلبـه ، ولم تستـول عليه النـوائب ، واذا آمن افـراد المجتمـع استـطاع كل منهم الاعتماد عـلى الآخرين وتفشت الخيـرات بينهم ، وانتفت الشرور . اننا نتحدث هكذا عن الايمـان ، فما هـو الموقف الاصيل ؟

لا يشـك احد في وجـود مثل هـذه الآثـار ، ولكن هـل هـو حسن لوجـودهـا أو أنـه بنفسـه كمـال وخـير وسعـادة للانسان وان الانسان مدعو للايمـان لأنه بنفسـه خير وليس لآثاره المترتبة عليه .

وهنـا ينطرح هـذا السؤال : ما هـو الكمـال الانسـاني ـ أصـولاً ـ ؟ لكي تفهم الجـواب عن السؤال المـاضي يجب ان نعـرف الجواب عن هـذا السؤال ونعرف بـأي شيء يتم الكمال ؟

ان تـشخـيص الكـمــال الانسـاني اصعـب وأدق مـن تشخيص اي كمال لأي موجود آخر . وتعتبـر هذه المسـألة

من المجهولات التي ترتسم امامه حول وجوده هو ، فبأي شيء يكون الكمال الانساني ؟

اننا نستطيع ان نشخص كمال أكثر الموجودات في هذا العالم فاذا سئلنا عن التفاحة الكاملة وكيف هي ؟ اجبنا بوضوح عن صفاتها الكمالية التي تقابلها صفات النقص ، وكلها امور واضحة لدينا ، وهكذا يمكننا بسرعة ان نتحدث عن التفاحة الكاملة من خلال صفاتها المطلوبة . . . طعمها . . . لطافتها . . . لونها وبالتالي شكلها ، فاذا توفرت تفاحة ذات طعم لذيذ حلو ورائحة طيبة ، لطيفة نظيفة ، سهلة غير مؤذية للاسنان اعتبرناها كشيء مفيد ، تفاحة كاملة .

وهكذا يمكننا ان نوضح البيت الكامل ، والحصان الكامل ، الا ان أشكل الامور هو ان نعرف الانسان الكامل ، ولذلك فنحن بحاجة الى الحديث عن النظريات المطروحة في الانسان الكامل لنعرف ايها الصحيح وأيها الخطأ . او اذا لم نستطع ان نصل الى الحقيقة باجتهادنا وسعينا الفكري فلنرجع ـ على الاقل ـ الى القرآن الكريم لنعرف اي النظريات هي الاصح والى اي مدىً يؤيدها القرآن الكريم .

وأول ما يطرح في هذا المجال هو ان يقال :

ان الانسان الكامل هو الانسان القادر . فالانسان الكامل هو الانسان المستفيد من الطبيعة والبيئة التي يعيشها ، والذي يمتلك هذه الامور ، والذي يتنعم بها .

ومن المسلم به ان هذا التعريف خاطىء ، ان كمال الانسان لا يحصل بتوفره على الاشياء فيقال ان الانسان الاكمل هو الانسان الاكثر استفادة من الاشياء ذلك :

أولاً : لاننا لا نعرِّف اي شيء آخر بمثل هذا الاسلوب ، اننا لا نقول ان الحصان الكامل هو الحصان المتوفر ، وانما نركز عليه في صفاته ووضعه الخاص ، فليس الحصان الكامل هو الحصان الذي تناول علفه أكثر من غيره بالامس مثلاً ، وليست التفاحة الكاملة هي التفاحة التي توفرت لديها العناصر الطبيعية (الهواء ، الماء ، النور) .

ثانياً : اي وجدان يقبل هذا التعريف وهو ان أكمل الناس هو أكثرهم توفراً وقدرة على الاستفادة ؟ ان لازم ذلك ان الاقل توفراً على الاستفادة من الطبيعة هو الاقل كمالاً ، فالمتوفر المالك هو الكامل وغيره هو الناقص ؟

وعليه فلو كان امامنا انسانان احدهما مثل معاوية كل همه الاستفادة من الحد الاكثر من نعم الدنيا في كل الظروف حتى انهم ينقلون عنه قوله : ﴿ اننا اخطأنا في أكل نعم الدنيا ﴾ فقد قضى ثمانين عاماً من عمره ٤٠ عاماً حاكماً على الشام (عشرون منها كوالٍ قوي ، والعشرون الاخرى كخليفة قوي) والثاني كالامام امير المؤمنين عليه السلام الذي كان يعيش في حياته الزهد بتمامه ، وكانت له فلسفته في زهده ـ ايا كانت هذه الفلسفة ـ رغبته في ان يعيش حراً ، او رغبته في الايثار ، او مواساته للآخرين ، او ان لا يقع اسيراً للذائذ الدنيوية ويفرغ قلبه للمعنويات ، على اي حال فقد كان رجلاً كل حظه من الدنيا ـ خلال سنين ـ سبعة عشر مناً من خبز الشعير . فهل نقول عن الأول انه كامل وعن الثاني انه ناقص ؟

اذا قلنا هكذا جعلنا الانسان أخس من الحيوان واقعاً . ذلك اننا لا نقيس اي حيوان بمقياس استفادته من الطبيعة .

والواقع اننا اذا تأملنا في تصرفات الكثيرين وجدناهم من هذا النمط ، فهم لا يفكرون الا في التنعم

والالتذاذ ، وكل شيء حقق لهم هذه الفائدة كان حسناً والا فسيِّء ، كأن الغاية والكمال الاصلي للانسان هو هذا لا غير .

انه امر خاطىء بلا ريب ، بل ويمكن ان يطرح هنا موضوع دقيق آخر وهو أنه :

« لا يوجد هناك انسان يعتقد ـ بصراحة ـ ان كمال الانسان يكمن في مدى استفادته من الطبيعة مما يؤدي الى نفي اي عنصر معنوي من حياته ونفي اي عمل انساني والا فان ذلك يعني ان الايثار امرٌ خاطىء لأنه نقص وتنازل » .

وهنا قد يغير الموضوع فيقال : ـ كما يخطر على بعض الاذهان ـ ان التنعم بنعم الدنيا ليس كمالاً ولكن ما هو الموقف من التنعم بالآخرة ؟

فنقول : ان كمال الانسان يكمن في تنعمه ولكن في الآخرة ولا تقول بالتنعم في الدنيا لأن ذلك سوف يحرمنا من الآخرة ـ حسب هذا التصور ـ ولكن ما المانع من التنعم الاخروي ، فكمال الانسان يكمن في ذلك الاكل والحصول على النعم الالهية ، وبما أنها لم تكن متوفرة في هذه الدنيا فان النظر سوف يركز على نعم الآخرة ، ولذا

تجد الزهـاد ـ العوام ـ يعبـدون لكي يحصلوا عـلى نعم أخـروية أكـثر ، اليست العبادة للحصـول عـلى الجنـة هي للحصول على خير أكثر ؟ ان العبـادة مقدمـة التنعم الاكبر وبالطبع فان ذا المقدمة افضل من مقدمته واشرف .

ذلك ابن سينا في النمط الثاني من اشارته :

« العبـادة عند غـير العـارف معـاملة مـا كـان يعمله في الدنيا ليأخذ اجراً في الآخرة ـ مثلاً ـ فهو يعمـل كعامـل له اجـره » . ان العامـل المأجـور هـدفـه المـال الـذي الـذي يحصـل عليـه ، والا فليس مستعـداً لـلعمـل ، وهـذا الشخص ايضاً يعبد للحصول على نعيم الآخرة .

وهكذا يعود الكمال مرة اخـرى الى القدرة عـلى التنعم وان لم يكن ذلك في الدنيا بل في الآخرة .

وان من المسلم بـه في التعاليم الـدينيـة ان العبـادة التي تستهدف الحصول عـلى نعيم الآخرة عبـادة ناقصـة جداً ، بمعنى ان العبادة هي بالمقدار الذي يتوقعه الانسـان من الله بـأزائهـا ، انـه يتـوجـه الى الله لكي يحصـل عـلى الآخـرة والجنـة . . . انـه يعبـد ليـطيـع امـر الله فيعـوضـه الله في الآخـرة . . . فـالعبـادة وسيلة جعلهـا الله لـه ليصـل الى النعيم . .

اننــا نلمـح في كلمــات الائمـة وفي نهج البــلاغــة ، نصوصاً تتحدث عن هذه الحالة من مثل :

« إن قـوماً عبـدوا الله رغبة فتلك عبـادة التجـار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد ، وان قـوماً عبـدوا الله شكراً فتلك عبادة الاحرار »[1] .

والعبارات مختلفة في هذا المعنى .

فهناك قوم يعبـدون طمعاً ، وآخـرون خوفـاً ، وآخرون يعبدونه شكـراً وحباً لـه ، فحتى لو لم يكن هنـاك ثواب او عقـاب فهم يعبدون ، وقـد نقلت عن الامام امـير المؤمنين عليـه السـلام عبـارة اصـرح من سـابقتهـا وهي قــولـه : **﴿ إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعـاً في جنتك بـل وجدتك اهلا للعبادة فعبدتك ﴾** .

وعلى هذا ، فالنظرية القائلة بـأن كمال الانســان في قدرتـه عـلى التنعم ان كـانت تنـظر الى الـدنيـا فقـد نفت كــل الفضــائـل ، وان نـظرت الى الآخـرة فهي غــير صحيحـة ايضاً والا لكانت أكمل العبادات تستهـدف التنعم في حين

---

(١) الحــكـمــة ٢٣٧ : نهج البـلاغـة : تـرتيب د. صبحي الصالح ص ٥١٠ .

لاحظنا انها من العبادات الناقصة بل انقصها ، فلا يمكننا ان نقول ان كمال الانسان في قدرته على التنعُّم .

وهناك نظريات اخرى غيرها ، بعضها روحاني والآخر مادي والنظريات المادية ترجع بالتالي الى نظرية التنعم ، اما النظريات الروحانية فهي على النحو التالي : ـ

١ ـ أول نظرية وأهمها اهنية للبحث هي نظرية العارفين والواقع ان العرفاء هم الذين طرحوا للبحث مسألة « الانسان الكامل » ويمكن القول بأنهم استمدوا نظريتهم من الاديان حتماً . . . انهم استلهموا نظريتهم من موضوع (آدم) وموضوع (النبي) و (الولي) والانسان الكامل في (آخر الزمان) المهدي الموعود والآتي ذكره في جميع الاديان .

ولـ « ماسينيون » المستشرق المعروف كتاب تحت عنوان « الانسان الكامل في الاسلام » ترجمه عبد الرحمن بدوي الى العربية يقول فيه : « ان فرضية الانسان الكامل ليس ميراثاً هيلينياً اي ليس ميراثاً يونانياً ، ذلك ان الفلسفة اليونانية لم تتحدث عن الانسان الكامل وما تبحث فيه » .

وفي العالم الاسلامي طرح العرفاء هذا البحث

وخصوصاً محي الدين العربي يحث فيه كثيراً ، وكتب فيه الكثيرون منهم عبد الكريم الديلي حيث الف كتاباً باسم (الانسان الكامل) ، وكذلك الف عزيز الدين النسفي كتاباً بنفس الاسم ، وكذلك الف السيد محمد البرقعي اخو السيد المرحوم السيد حسن البرقعي ـ وكان رجلاً عارفاً شاعراً .

ان للعرفاء مسلكهم ونظريتهم الواضحة في الكمال الانساني والانسان الكامل ، وهي وان لم يقبلها غيرهم ، لكنها عندهم مسلَّمة تماماً ، وهم على اساس منها يحكمون حكماً قاطعاً على الافكار .

وعلي اي حال فكلامهم عجيب .

ان العرفاء يعتقدون ان الحقيقة واحدة لا غير وهي الله .

انهم لا يرون غير الله حقيقة بل يرونه دائماً ظلاً للحقيقة وسيماءاً لها ، ويعتبرون حقيقة كل شيء ـ رغم كونها ظاهرية ـ انما هي باعتبار انتساب ذلك الشيء لله ، فكل شيء في نظر العارف هو شأن وصفة واسم الله ، اما اذا رأينا الاشياء في قبال الله فقد اعتبرناه شيئاً وكانت الاشياء شيئاً آخر . وهذا يعني اننا جعلنا له ثانياً .

وهم يـرون اننا في الكفـر والشـرك والجهـل والحجـاب المحض سـادرون فاذا متنـا متنـا في « ظـلام » اي لم نـدرك الحقيقـة ، وانما يكمـل الانسـان اذا ادرك الحقيقـة ووصـل اليهـا ، ولـديهم اصـطلاح « الـوصـول للحق » ولا يعني - والعيـاذ بـالله - ان يحـل الله في الانسـان اذ ان ذلـك هـو المحـال في حق الله ، او أن يتحـد مـع خلقـه ، فـانهم لا يرون الله ثانياً مطلقاً .

يقول الشبستري - ما ترجمته :

« ان حلولا واتحـاداً محـال تعـدد الواحـدعينالضـلال

فـاذا قال بـ (الحلول) فقـد جعل لله ثـانيـاً وهـو عـين الشـرك وهو مـا يفر منـه . واذا قـال بـ (الاتحـاد) فهنـاك شيئـان اتحدا مـع انـه لا يـرى للشيء شيئيـة بحيث يكـون ثانياً لله ، ان الخلق في نـظر العارف تجـلٍّ لا غير ، والخلق لا يعني الا الظهور .

وعلى هذا فـالوصـول يعني الفناء فيـه ، والفناء يعني ان يصـل الانسان الى حيث يـدرك الحقيقة كـما هي ، ويدرك نفسـه بعد ادراك الحقيقـة ، فهو قبـل كـل شيء يـدركـه - تعالى - فيقول مـا مضمونـه « ما رأيت شيئـاً الا ورأيت الله

قبله وبعده ومعه » وحينئذ فلا يبقى هناك فرق بين الانا والنحن ، هذا هو الفناء .

فأصل كلام العرفاء ، هو ان الحقيقة شيء واحد لا غير ، وغير الحقيقة ايا كان ليس ثانياً له ، وانما هناك تجليات واسماء ، والوصول للحقيقة يعني ان يصل الانسان الى حيث يدرك هذه الحالة تماماً ، ويرى الله في كل شيء ومع كل شيء « وهو معكم اينما كنتم »[1] مع كل شيء بل قبل كل شيء ، ولا يرى قوام كل شيء الا به ، ويرى كل شيء ـ في الواقع ـ فيه ، ومن ذلك نفسه هو وحينئذ فلا تبقى (أنا) في البين . وهذا هو معنى (الفناء) الذي يقولون عنه بأن الانسان اذا وصل الى هذه الحالة وحصل هذا الفناء والاتصال فان الفرد حينئذ يصبح ـ كما يعبرون ـ يد الله الباسطة ، والعرفاء يعتقدون بالوصول .

وهذا هو « السلوك » و « السير الى الله » و « السلوك الى الله » ونحن اذ نعبر بـ (التقرب) نقصد به القرب منه تعالى ، ولأنهم يعتقدون بالسير والسلوك والحركة الى الله ، وطي المنازل اليه ، ويرون لمثل هذه المنازل نظاماً

---

(١) الحديد : ٤ .

خاصاً كالمنازل المكانية ، بحيث ما لم يطو المنزل الاول فمن المحال الوصول الى المنزل الثاني فقد عينوا منازل لوصول الانسان الى الحقيقة ، ان كمال الانسان - في نظرهم - واضح جداً ، فالانسان الذي لم يصل الى الحقيقة ناقص محجوب ، وغير ناضج وواصل ، وانسانية الانسان واستعداده الاصلي ، في هذا لا غير ، وهو ان يعرف الحقيقة ويصل اليها ، والذي لم يصل فهو متأخر ، اما مركب هذه المسيرة فهو « العشق والحب » و « الانس » والطريق طريق القلب لا طريق الفكر والفلسفة .

وكل شيء آخر وكل كمال آخر في نظرهم يتشعب من هذا الكمال . نعم كل شيء كما له اما باعتبار انه سبيل لذلك الكمال او ناشيء منه . فعند ما نسأل :

هل الزهد كمال ؟ يجيبون نعم ، لأنه شرط الطريق .

وهل التواضع كمال ؟ يقولون ، نعم لأنه من شروط سلوك الطريق .

وهكذا ، فكل المحاسن الاخلاقية والهداية والارشاد هي اشياء حسنة لأنها آثار لهذا الامر .

وعندما ما يصل الانسان ؛ يصبح مظهراً لاسم الهادي وهو بهذا يرشد الآخرين ويهديهم .

وهكذا نجد من الواضح لدى العرفاء ان الكمال يساوي الوصول الى الحقيقة ، فالحقيقة واحدة لا تتعدد ، وكمال الانسان يعني الاتصال والوصول لهذه الحقيقة .

٢ ـ وللحكماء والفلاسفة نظرية اخرى حول الكمال الانساني ، فالانسان الكامل في تصورهم يعرف بتعريف آخر يختلف قليلاً عما يقوله العرفاء .

وليس في تعبيرات الفلاسفة تعبيرات وحدة الحقيقة ، والوصول ، والسير ، والسلوك ، والوصول والفناء بالشكل الذي نجده لدى العرفاء وانما نجدهم يرون الكمال الانساني كامناً في شيئين :

أحدهما : « ادراك الحقائق » وبعبارة اخرى « الحكمة » اما كلمة « العلم » فلا تفي بالمقصود ، فالعرفاء يطرحون « الحقيقة » والفلاسفة يطرحون « الحكمة » ويقصدون بالحكمة ادراك الحقائق كما هي ، وادراك عالم الوجود كما هو عليه ، وبالطبع يقصدون ادراك النظام الكلي ، اما ادراك الجزئيات فهو من واجبات « العلم » كمثل ادراك خواص التفاح ، فهو علم لا حكمة ، اذ هناك فرق بين

الادراك الكلي ـ للبيت مثلاً ـ والادراك المتعلق بجزئياته ، وهكذا الاطلاع الكلي على مدينة طهران مثلاً يختلف عن الادراك الجزئي لسائق التاكسي لبعض ازقتها في حين يجهل الكثير من الحقائق عنها : من اين تشرب ؟ من اين تأتيها الكهرباء ؟ ما هو نظام البلدية ؟ واساليب البوليس ؟

ان الحكيم الفيلسوف يرى الكمال الانساني في معرفة العالم الكلية معرفة صحيحة بحيث يصبح هو عالماً علمياً . فالعالم العيني يتجسد في ذهنه عالماً علمياً ، ولذا يقولون في تعريف (الحكمة) انها :

« صيرورة الانسان عالماً عقلياً مضاهياً للعالم العيني » .

فيعرفون الحكمة من حيث غايتها ، ففي العالم العيني ـ مثلاً ـ يوجد واجب الوجود ، والنظام الكلي لعالم المجردات والمتوسطات ، والماديات ، وكل ذلك يعلم به الانسان .

فالانسان الكامل في تصورهم هو الانسان الذي تلقى الحكمة ، ويمكننا ان نبحث في مصداق الحكمة ، اما في أصلها فلا مجال للبحث .

يقـول القرآن الكـريم : ﴿ **يؤتي الحكمة من يشـاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾[1] .

فكمـال الانسان ـ بنـظرهم ـ يكمن في الحكمـة ، هـذا هو الامر الاول .

والامـر الثاني هـو العدالـة ، ويقصـدون منهـا العـدالـة الاخلاقية .

امـا العـدالـة الاجتمـاعيـة فتتبـع العـدالـة الاخـلاقيـة ويقصـدون بها التعـادل والتـوازن الـذي يجب ان يتم بـين القـوى والغرائـز الانسانيـة تحت سيطرة القـوى العـاقلة ، ويعنـون بها سيـطرة العقـل عـلى جميـع القـوى الشهـوانيـة والغضبيـة والوهميـة ـ او كما يـطلق اليوم ـ (جميـع الغرائـز والميول) بحيث يقول العقـل باعـطاء كل قـوة نصيبها دون افـراطٍ وتفـريط ، ودون ان يضيـع حق اي قـوة او تعـطى أكثر مما تستحق .

ولأن الحكماء يعتقدون ان للانسان جنبتـين ، جنبة اليـد الفوقية ، وجنبة اليد البدنية .

---

(١) البقرة : ٢٩٦ .

فمن جانب اليد الفوقية يكمن كمال الانسان في الحكمة .

ومن جانب اليد البدنية يكمن كمال الانسان في العدالة .

فالأول يعتبر كمال العقل النظري والثاني كمال العقل العملي ، فالانسان الكامل ـ من وجهة نظر الحكماء ـ انسان ذو عقل حكيم في المسائل النظرية ، ومعتدل من حيث الاخلاق في المسائل العملية ذلك انهم يعتقدون ان كل الاخلاق الحسنة معتدلة ، بمعنى أنها الاخلاق التي تستوفي فيها كل قوة وغريزة ، حقها بعدالة .

وهم يرون ان الحكمة في نفسها كمال لا مقدمة للكمال .

وكما قلنا سابقاً بالنسبة للايمان وطرحنا هذا السؤال هل انه هدف او وسيلة ؟ نطرح الآن هذا السؤال هل الحكمة هدف للانسان أم وسيلة ؟ وكذلك بالنسبة للعلم ـ وهو مسألة قائمة اليوم ـ يقال منذ عدة قرون : هل العلم هدف للانسان او وسيلة ؟ او هو هدف ووسيلة في آن واحد ؟

وهل العلم كمال للانسان ؟ ومن الطبيعي انه اذا كان كمالاً تترتب عليه منافع ، بل ان العلم انما يتم لتحقيق المصالح ، فاذا لم تكن هناك منافع فان العلم غير نافع ، فكل علم كانت منافعه أكثر كان افضل والعكس بالعكس .

٣ ـ هناك نظرية اخرى وهي ان كمال الانسان يكمن في « العواطف » اي في « المحبة » او ان المحبة على الاقل هي احد اركان الكمال الانساني .

وهكذا نجد ان رأي الحكماء يجعل الكمال في « الحكمة والعدالة » والعرفاء في « الحقيقة » وهذا الرأي ـ وهو رأي اخلاقي ـ يجعله في « المحبة » ـ فالانسان الكامل هو من كانت محبته للآخرين اكثر وكلما ازدادت محبة الانسان لغيره (وخصوصاً لافراد الانسان او على الاقل الاحياء او على الاقل ايضاً كل العالم فهو يعشق غيره) كان الاكمل .

وكلما نضبت عيون المحبة تجاه الغير ـ حتى لم يعد يحب الا نفسه ـ كان أنانياً ناقصاً ، وهو انسان تدينه الاخلاق ، لأن محور الاخلاق السيئة هو الانانية ، وبالمقدار الذي يتخلص فيه الانسان من انانيته ـ فيحب

غيره ويعشقه ـ تكون اخلاقه ممدوحة . وهذه هي النظرة التي يؤكد عليها الهندوك وهو تأكيد في محله .

فهذا غاندي في كتابه (هذا هو مذهبي) يؤكد على هذا المعنى كأروع ما يكون ، وطبيعي ان الهنود يؤكدون على مسألة (الحقيقة) وكذلك (المحبة) وهم ينتقدون المدنية الغربية لأنها رفضت هاتين القضيتين .

٤ ـ وهناك نظرية اخرى تعتبر كمال الانسان في جماله وحسنه ، وطبيعي ان المقصود ليس الجمال الجسمي ـ لوحده ـ وانما التركيز على الجمال الروحي . وبعبارة اخرى فانه يكمن في الفن والاعمال الجميلة ، والنشاطات الرائعة الناشئة عن روح لطيفة ، فكل شيء يأتون به ينطوي تحت هذه العناوين ، حتى الاخلاق التي نسميها حسنة يقولون عنها انها كمال لأنها جميلة ، والعلم هو من مقولة الجمال والحقيقة نفسها لأنها جميلة فهي كمال ، وعليه فان الكمال الانساني يتلخص بالجمال ، وطبيعي ان هذا تعبير مستقل ولكنه ليس رأياً يغاير ما قبله .

٥ ـ هناك نظرية اخرى هي النظرية الغربية المتداولة حيث يملك الكمال الانساني فيها جانباً مادياً ، في حين

انه كان يمتلك في النظريات الماضية جوانب روحية ، فالحقيقة والحكمة والعدالة والمحبة والجمال لم يكن اي منها مادياً ، في حين ان هذا الرأي يركز على ان الكمال الانساني ، في القدرة فكلما كان أكثر قدرة وأكثر سلطة على الطبيعة والبيئة ـ وحتى الآخرين من ابناء جلدته ـ فهو أكثر كمالاً .

والتكامل الداروني يقوم على هذا الاساس ، فالموجود الاكمل في تصور دارون هو الموجود الاقوى ، والموجود الاقدر على حفظ وجوده ونفي ضده ومنافسه في ميدان تنازع البقاء ولهذا أشكل على دارون بأنك عبر طرح مسألة تنازع البقاء نفيت الاخلاق لأن هذه النظرية تعني ان الكمال في ذلك مما يزلزل اساس الاخلاق ، وهذا هو الذي ركزت عليه الدعاية الغربية وحاولت ان تعطيه وجهة رائعة ، وتصفه بأنه اكتشاف عظيم ينفي خطأ عمره الف سنة وهو ان الآخرين كانوا يسعون خلف العلم دون ان يفكروا في هدف طلب العلم ، الا اننا نقول ان العلم هو ما ينفع الانسان ويزيد من قدرته ، ويرفع من مدى سيطرته على الطبيعة ، ومن هنا فقد اتبعوا العلم التجريبي ، العلم الذي يقدم افضل وسيلة للانسان ، وعلى هذا تقدمت الحضارة والصناعة .

وطبيعي ان التقدم المذكور صحيح ولكنه اضر بالبشرية أكثر مما نفعها .

فلندع مسألة الحقيقة ، وكذلك مسألة الحكمة والعلم ، بعنوان انها كمال ، ولكن نفس القدسية فقدت قدسيتها ولم تعد كمالاً ، وهكذا المحبة التي اعتبرت كمالاً فقدت شرفها ، والايمان الذي اعتبر بنفسه كمالاً للانسان فقد قدسيته ، وعاد كل شيء مقدمة للقدرة ، وقد غيّر هذا مسير البشرية ، ومن هنا فمهما ادعت البشرية ، فانها لم تستطع الاعتقاد بأية معنوية ، وحتى لو قالت ؛ فان عملها يكذب قولها .

وقد قلنا ـ في موضع آخر ـ انهم يشكلون على الفيلسوف (نيتشه) انه قال كلاماً غريباً ولكني اعتقد انه لا مجال للعجب ؛ فقد كان نيتشه اصرح من غيره لا غير . فانَّ لازم تغيير مسير العلم الذي تم على يد بيكن وغيره هو ان نقول في الاخلاق ما قاله نيتشه ، وان النتيجة المنطقية للاسلوب الذي اتبعه بيكن وغيره ـ فجعلوا العلم في خدمة القدرة ، وحصروا الكمال الانساني صرفاً في القدرة ـ هي هذه العبارات التي تفوه بها نيتشه في الاخلاق والمسائل الاجتماعية .

الدرس الخامس

المثل السامي في التصور الاسلامي

لقد كان بحثنا حول الهدف الاصلي لـلانسان في تصـور الاسـلام وها نحن نتحـدث عن تصـور الاسـلام للكمـال الانساني .

فما هي صورة الانسان الكامل لدى الاسلام ؟

من الـطبيعي ان عـلى كـل مـذهب اذا اراد ان يصـوغ اتبـاعه ويـريهم السبيل ، ويحـرك فيهم الارادة فـلا بـد ان يعرفهم هدفه ويدعوهم للسير نحو هذا الهدف .

ومن هنـا فـان هـدف الاسـلام من الانسـان الكـامـل بـالـطبـع ، يعني الهدف الـواقعي للمسلم والـذي يجب ان

يصوغ كل اعماله ووفقه ، وعلى هذا فعندما نبحث عن الانسان الكامل في التصور الاسلامي ، فاننا في الواقع نبحث عن الهدف والمثل السامي الاصيل في الايديولوجية الاسلامية .

ولكي يتوضح الامر جيداً يجب ان نستعرض النظريات التي ذكرناها عن الانسان الكامل وكمال الانسان لنعرف موقف الاسلام منها ، وهل له موقف آخر مستقل ؟

والخلاصة : اننا قلنا ان العرفاء كانوا اول من طرح هذا البحث ، وهذا العنوان هو من تعبيراتهم ، وأنهم أكدوا ـ في نظرتهم العرفانية الى الكون ـ على ان الحقيقة واحدة لا غير ، وتلك الحقيقة مساوية لذات الله الحق ، أما المخلوقات فهي عبارة عن نوع من تجليات الذات الالهية ، فليست امراً مبايناً لذات الحق ، ولما كان الانسان مخلوقاً جامعاً ـ او تعبيرهم أكمل مظهر للاسماء والصفات الآلهية ـ فان كمال الانسان يكمن في رجوعه الى اصله .

فهم ـ اذن ـ يرون الحقيقة واحدة ، وهي ذات الحق ، ويرون غير ذات الحق بمنزلة « ظل » لذات الحق و « سيماء » له ، بمعنى ان غير ذات الحق بالنسبة لأنفسها

امور حقيقية ولكن بالنسبة لذات الحق هي (النسبة بين الشيء واللاشيء) بل هي نسبة الشيء والفيء .

وعندما يأتي الحديث عن الحق فهو تعالى « الحق المطلق » وليس في قباله اي حقّ ، انهم يعتقدون ان الانسان ميسور له « الوصول الى الحق » او كما يعبرون « الفناء في الحق » . والانسان عند التشبيه يشبه موجوداً انفصل عن اصله فهو ـ كما يعبرون ـ يعيش الغربة ، وكماله وسعادته في عودته الى وطنه الاصلي ، وهو ذات الحق « انا لله وانا اليه راجعون » .

وهم يعتقدون بالسبيل والمركب ، ولكن هذا السبيل يستوعب تمام وجود الانسان (اي قلبه وتطوراته وتحولاته) حيث يقولون ان الانسان يعبر الكثرات ـ من الكثرة ـ ، وترتفع الحجب ليصل الى الوحدة الكاملة ، ومركب هذا الطريق في تصورهم هو العشق والعبادة وتزكية النفس وغير ذلك .

أمَّا الحكماء الالهيون فليس لديهم مثل هذه الافكار بل انهم يرون ان جوهر الانساني يكمن في (القوَّة العاقلة) له ، فالانسان الواقعي ـ اصولاً ـ هو عاقلة الانسان وما غيرها هي فروع وغصون لها .

وكمال الانسان عبارة عن كمال القوة العاقلة ، وكمـال (القوة العاقلة) ـ نظراً لأنه ذو جانبين (نـظري وعملي) ـ يتم عبـر « الحكمة » ككمـال في الجـانب النـظري ، وتعني الحصــول عــلى الاشيــاء كــما هي عــلى حقيقـتهــا ، و « العدالة » في الجانب العملي . ويقصدون من العدالـة ان يتحكم العقـل في وجود الانســان لا غـير فليست هنـاك . اية سلطة لأية قـوة اخرى . فيكـون الجميع محكـوماً للقـوة العاقلة .

ولافلاطون في مجـال « المجتمع » فـرضية يعتقـد فيها ان المجتمـع انما يتحـول الى مدينـة فاضلة اذا كـان الفلاسفـة هم الحكّام والحكّام هم الفلاسفة وهم يـطبقون نفس هـذه الفرضية في الفـرد فيؤكدون ان الفـرد إنما يكـون سعيداً اذا كان الحاكم في وجوده فيلسوفاً ، والفيلسوف حـاكماً اي اذا كانت القوة العـاقلة ـ وهي قوة التفكـير الانساني ـ حـاكمة في الوجود الانساني دون اية قوة غيرها .

وليس في كـلامهم حـديث عن الـوصـول الى الحقيقــة وغــير ذلــك ، انهم يتحــدثــون عن الفـكــر لا القـلب والروح ، وسبيلهم هو سبيـل المفاهيم والتفكـير ، ينتقلون من فكـرة الى فكـرة وهـم يمتـطون القـوة العـاقلة ويـطوون

الطريق على متن العقل والمنطق والاستدلال .

وكما قلنا فان مجموعة اخرى جعلت الكمال الانساني في (المحبة) ونرى ان الانسان الكامل هو الانسان الذي ينسىٰ ذاته بالنسبة للآخرين . . . يتخلص من نفسه بالنسبة اليهم . . . يحبهم كما يحب نفسه فلا حدود بين ذاته والآخرين ، ويكره لهم ما يكره لها . فكمال الانسان في المحبة ، وهو يعتمد في هذا على « العواطف الانسانية السامية » حيث تنمو وتتصاعد هذه العواطف لدى الانسان الكامل .

وأكد مذهب آخر على « الجمال » ، وجعل كمال الانسان في مدى جماله وحسنه لا الحسن الجسمي فقط حيث لا يعتبر له قيمة كبرى وانما الحس المعنوي والاخلاقي الرفيع فهو كامل لأنه جميل وفضيل ، والواقع ان مذهب (الفضيلة) عند سقراط ـ في المجال الاخلاقي ـ ينبع من هنا ، فاذا قيل : ان الشيء الفلاني فضيلة فهو الحسن العقلي . ان مذهبه يجعل الاخلاق قائمة على اساس الحسن والقبح العقليين ، انه يقول : ان الصدق حسن لأنه جميل وليس لديه كلام اسمى من الحسن ، وان الحسن في الامور الاخلاقية مثل الحسن في

الاموراالحسية فهناك حسن حسي وآخر عقلي .

والعلم - في تصورهم - كمال من حيث انه جمال فالجهل قبيح والعلم جميل . وكذلك القدرة ولذا نجد ان كل شيء في مذهب سقراط - الذي يجعل كل شيء بين حدي الفضيلة والرذيلة ، ويعتمد على الحسن والقبح العقليين - يعود في النهاية الى نوع من الجمال العقلي : الشعر ، الفن ، الابداع وغير ذلك ، فلأنه يخلق الجمال فهو يعود الى الجمال ، اذ ان خالق الجمال لو لم يكن جميلاً لم يخلق الجمال ، وما لم تكن الروح الانسانية جميلة ، لا يمكنها ان تقول الشعر الجميل . او ترسم الصورة الجميلة .

يقال ان احد سلاطين الاسرة القاجارية (في ايران) قال مقطعاً من الشعر ولم يستطع اكمال البيت فطلب الشعراء واستعان بهم فقال كل منهم شيئاً وفاز احدهم في النهاية وذلك المصرع هو :

لم يُرَ مثل يوسف في الجمال .

فأكمله احد الشعراء بقوله .

الحسن للخالق فهو الكمال .

وهذا هو الواقع . فخالق الجمال ما لم يكن يملك الحد الاعلى من الجمال ـ وان لم يكن من نوع الجمال الجسمي ـ لا يستطيع ايجاد الجمال .

وعلى هذا فمن يقدم لوحة شعرية رائعة ، او يترك اثراً جميلاً ، فانه يعبر بذلك عن جمال روحه بشكل اسمىٰ وأروع .

كانت هذه نظريات مختلفة في البين .

والآن لنعرف رأي الاسلام (ويجب ان نتنبه الى أن مثل هذا الموضوع لم يطرح من قبل فهو فعلاً في مراحله الاولى) .

فهل الاسلام في الحقيقة دعا الى هذه المعاني الآنفة ام لا ؟ اننا لا نستطيع الاذعان لكلام العرفاء تماماً ، الا اننا نعلم ان الله الذي يقول به الاسلام ليسَ مجرد موجود من الموجودات نسبته اليها نسبة الاب الى الابناء ، موجد لها وخالق اذ يأتي السؤال وماذا بعد الخلق ؟ الاب يوجد ولده ويقوم الى جنبه ، او ان نقول هو رازق للموجودات بمعنى ما نعرفه من ان يكون رزق مجموعة بيد أحدهم ، أو هو مثل محرك ارسطو الذي هو المحرك الاول لحركات العالم ، كلا فليس الله كذلك .

ان منطلق الاسلام حول الله يعلو هذه التصورات ، انه شيء لا تملك الاشياء في قباله شيئية ، فاذا كان الله حقيقة فما عداه (سراب) و (ظل) . . . . ﴿ الله نور السماوات والارض ﴾[1] فهو كما هو وكل شيء غيره في ظله ، نور السماوات والارض كلها هو . وهذه هي تعبيرات القرآن في حقه تؤكد أنه « الحق المطلق » اذ يقول :

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[2] وليس « انه حق » فهناك بينهما فرق شاسع .

والواقع ان المؤمن عندما يؤمن بالله فلا يعود غيره في نظره شيئاً يذكر ، فهو لم يصل الى شيء في مقابل الاشياء الاخرى وانما وصل الى شيء ، كل الاشياء في مقابله لا شيء .

وهذا الشاعر الايراني سعدي يوضح هذا الامر الى حد جيد في كتابه (بوستان) حيث يذكر الفرق بين الفيلسوف والعارف حول الله على النحو التالي :

---

(١) النور : ٣٥ .

(٢) فصلت : ٥٤ .

« ان سبيل العقل ليس الا اللف والدوران » .

« اما العارف فلا يرى امامه غير الله شيئاً » .

ولكي يوضح انه ليس هناك شيءعدى الله ، وهل ان الوجود هو الله او ان هذه الاشياء لا تمتلك ذلك الحظ وليس هناك إلاه ، يقول :

« يمكننا ان نقول لمن يعرف الحقيقة » .

« حتى ولو اعترض علينا اهل القياس » .

« بأنه ـ لو صح ما تقولون ـ فما معنى السماوات والارض ؟ » .

« وما معنى وجود بني آدم وغيره ؟ » .

ثم يجيب بأنه لا منافاة في البين فيقول :

« لقد سألت سؤالاً جيداً ايها الانسان الواعي » .

« فلأجبك جواباً يقبله اهل الدراية والعلم » .

« بان الشمس والبحر والجبل والفلك » .

« وبني آدم والغيلان والجن والملك » .

« كلها مهما كانت فهي اقل من ان » .

« نطلق عليها اسم الوجود في قبال وجوده » .

« فاذا كان الله موجوداً فهذه لا شيء » .

« قل الله ثم ذرهم »[1] .

فاذا قلت (الله) وتأتي (ذرهم) عقيبها ، فمن المحال ان يعرف الله احد ثم يميل الى قطب آخر . بل لا يستطيع ان يفرض في قباله قطباً آخر .

ومن هنا فان الايمان الذي يطرحه الاسلام بالله اسمىٰ من التشبيه بالصانع ، بل هو شيء لا يمكن ان يفرض غيره حقيقة الى جنبه اذا كان هو حقيقة . . . . انه عظيم عظيم .

أم ما يقوله الفلاسفة ، فهل ان الاسلام يطرح الحكمة بمعنى معرفة حقائق الاشياء ؟ (وسوف لن نتنازع في المصداق فعلاً) وهل اننا نعتبر ما يسميه الفيلسوف بالحكمة حكمة ام لا ؟ .

ان الاسلام يطرح مفهوم الحكمة ، وهل هناك ما هو افضل من التعبير القرآني ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن

---

(١) الانعام : ٩١ .

يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً﴾[٢] وقد اطلق على الحكمة هنا الخير الكثير للانسانية فهي شيء يساوي الكمال . . . هي خير لا مجرد امرٍ نافع ، بمعنى انه يجب اختيارها لا أنها امرٌ يختار للوصول الى شيء آخر .

وهكذا العدالة ، ونقصد العدالة الاخلاقية (وطبيعي ان العدالة الاجتماعية لا ترتبط بالكمال الفردي وانما هي كمال للمجتمع الانساني ونحن نتحدث عن الكمال الفردي) .

وللاسلام رأيه في العدالة الاخلاقية ، إذ أن نظرته الى القوى والغرائز نظرة معتدلة ، فلا افراط فيها ولا تفريط وانما تعطىٰ كل قوة حظها .

وطبيعي انه لا يقبل حكومة العقل لوحدها ـ وهو الواقع ـ فالعقل لوحده غير قادر على ان يتحكم في القوى والغرائز ، فيجب ان يكون هناك ايمان ، الا انه ـ على كل حال ـ من انصار العدالة ، وان كان يرىٰ فكرة « ان الحاكم الوحيد هو القوة الفلسفية الانسانية لا غير » امراً واهياً وليس صحيحاً ، فان القوة العاقلة للانسان ان لم يصاحبها ايمان ومثل سام غير قادرة على اقرار العدالة في

---

(٢) البقرة : ٢٩٦ .

مملكة الوجود .

وخلاصة الحال ان الفيلسوف الحاكم في الوجود الانساني عاجزٌ عن الادارة العادلة ، اما الحاكم القادر فهو الفيلسوف المؤمن .

أما بالنسبة للمحبة ، فماذا ننتظر أكثر من ان يقول الاسلام « احبب لغيرك ما تحب لنفسك وأكره له ما تكره لها »[1] وأمثال ذلك مما ورد في باب التراحم والتعاطف ، وهناك في كتاب (الكافي) باب خاص بالتراحم والتعاطف والعواطف المتبادلة ، وعندما يسأل رسول الله (ص) اصحابه .

اي عرىٰ الايمان اوثق ؟

يبدأ الاصحاب بالاجابة واحداً بعد الآخر : الصلاة ، الصوم الحج الجهاد . . . الخ .

وحينئذ يقرهم الرسول الى ما يقولون ولكنه لا يعتبر أيّاً منها اوثق العرى ، فيتساءل الاصحاب ما هو اذن يا رسول الله ؟ فيجيب : الحب في الله .

---

(١) نهج البلاغة ،الوصية رقم (٣١) صفحة : ٣٩٧ ضبط « صبحي الصالح » .

وهكـذا ليس حب الله فقط وانمـا محبـة الآخـرين في الله ، وهـو في الواقـع ناشيء من حب الله ، انـه الحب في الله والبغض في الله اي النـظر الى عـدو الله عــدواً للذات وعدواً للحقيقة وهو لازم حب الحقيقة .

فـالاسلام اذن يقـول بكل ذلـك ولكن يجب ان نعـرف ايها الاصل وأيها الفرع ؟ وهل انها كلها اصل ام لا ؟ .

وطبيعي انـه يـوجـد في الاسـلام شيء آخـر وهـو نفس مسألة « العبادة » اذ يقول القـرآن الكريم : ﴿ **وما خلقت الجن والانس الا ليعبـدون** ﴾[1] حيث ذكـرت كفـايـة للانسان .

فحتى لـو فرضنـا انه لا تـوجد مجموعـة تؤيـد المـذهب القـائل بـأن الانسان خلق للعبـادة ، وان الهدف والكمـال الانساني يكمنان فيهـا ، ولكنها عـلى اي حال هـدف ذكره القرآن فيجب التأمل فيه .

هذا وقد ذكرنا قبـل كل شيء نـظرية (التنعم المـادي) وقلنا انها ترجع الى نفي الكمال الانسـاني ووجود الانسـان الكامل حيث جعلوا هدف الانسان ومقصـوده هو الحيـاة ،

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

والمقصـود منها التنعم ، وهـدف الانسان ـ اصـولاً ـ هو ان يتنعم أكـثر ، وكـل شيء بـالقيـاس الى تنعم الانسـان حسن . فـالعلم حسن لـلانسـان من زاويـة انـه وسيلة لوصوله الى القدرة التي هي منشأ التنعم .

ان التكـامـل الانسـاني يعني التكـامـل في التنعم ، والتكامل في تواجد الظروف الافضل للتنعم .

وان المسيرة الانسانية تقريباً منذ عهـد بيكن تتجه بهـذا الاتجاه خصـوصـاً اليـوم ، اذ يقـال هـذا مجتمـع متقـدم ومتكامل فماذا ينطرح في الاذهان ؟ هل المجتمـع الواصـل للحقيقـة ؟ ام المجتمـع المؤمن ؟ ام الـواصـل الى الحكمـة والعدالة ؟ ام البالغ الى مرتبة المحبة ؟

كلا . وانما يراد المجتمع المتنعم اكثر . . . والذي تتـوفر لـديـه النعم ، والـواصـل الى المستـوى الصنـاعي والعلم الذي يطور الصنـاعة . . . هـذه الصناعـة التي تنظم حيـاة الانسان وهي بالتالي تجعله متنعماً أكثر .

وهــذا التنعم لا يـرونــه مستـوىً من التنعم الحيـواني والنباتي ، وانما يرونه بنفس المستـوى الذي يحقق نمـو البدن وسلامته ، وهو الامر المشترك بين الانسان والنبات ،

فتكون التغذية وهي امر مشترك بيننا وبين النبات ،

ويكون تكاثره جيداً وهو مشترك بيننا وبين النبات ،

والمتطلبات الشهوانية الانسانية جيدة وهي مشتركة بين الانسان والحيوان ، وليس هناك ـ فوق هذا ـ تنعم وتمتع .

فالكمال الانساني ليس شيئاً وراء الكمال النباتي والحيواني .

اما العلم للانسان فحكمه حكم القرون للحيوان . انه وسيلة التنازع مع الطبيعة للبقاء ، او تنازع الناس فيما بينهم .

والآن لنطرح مسألة العبادة .

لِمَ العبادة ؟ يوجد هنا امران :

فتارة نقول كما يقول الناس العاديون لماذا يعبد الناس الله ؟ فيجاب لكي يثيبهم الله في العالم الآخر فيتنعموا تماماً هناك .

وهذا يرجع الى التنعم وان كان هناك في العالم الآخر لا في هذا العالم ، اما الحد والمرتبة فواحدة ، منتهى الامر

أن التنعم هنا محدود ، اننا نعبد لكي نتمتع ونتنعم في العالم الآخر ، ونقصد بالتمتع والتنعم مثل هذا النوع من التنعم الذي نراه في هذه الدنيا ولكنه هناك اكمل وأكثر : الحور والقصور . . . الخ .

اذا كنا نطرح الامر هكذا فلم نخط بالانسان كثيراً عن المستوى الحيواني ، وطبيعي اننا جعلنا الانسان موجوداً يقبل البقاء في العالم الآخر . . . انه حيوان يستطيع ان يديم حياته في العالم الآخر ايضاً . ولم نقل بكمال آخر للانسان .

انها عبادة الاجراء او عبادة العبيد ـ كما يعبر امير المؤمنين عليه السلام ـ وليست عبادة الاحرار ، ان العبادة في منطق الاحرار ليست وسيلة مطلقاً الى هذا التنعم ، كما انها ليست وسيلة للخلاص من الآلام المادية الجسمية ، يقول امير المؤمنين عليه السلام كما في (نهج البلاغة) .

« ان قوماً عبدوا الله (طلباً) للجنة فتلك عبادة الاجراء ، وان قوماً عبدو الله (خوفاً) فتلك عبادة العبيد ، وقوماً عبدوا الله (شكراً له) ، وقوماً عبدوا الله حباً له ـ كما في تعبير لحديث آخر ـ) فتلك عبادة

الاحرار .

ان الامـر يختلف كثيراً ، إذ أننـا اذا طرحنـا هـذا المعنى فـان الامر يـرجع الى ان الكمـال الانساني فـوق المشتهيات الحيوانية حتى مع كونها في العالم الآخر انـه بمستوى العبـادة (الشـاكرة) (المحبـة) (العاشقـة) وهناك يكـون للعبادة مفهـوم يساوي مفهـوم العشق للحقيقة ، وحينئـذ لا يعـود الله وسيلة لحيـاة الانسان حتى في الآخـرة ، بل يكـون الله بنفسه حقيقة وبنفسه مطلوباً حقيقياً .

« يـا ولي المؤمنين يـا غايـة آمال العـارفـين ، يـا غيـاث المستغيثين، يا حبيب قلوب الصادقين »[1] .

ومن هنا تكون مسألة العبادة تقارب مسـألة (الحقيقـة) انها عبادة الحق ، ونفس العبادة تكـون لها مـوضوعيـة « ما عبـدتك خـوفاً من نـارك ولا طمعاً في جنتـك بل وجـدتك اهلاً للعبادة فعبدتك » وهنـا يكون للعبـادة أوجها الـرفيع فيختلف الامـر اختـلاف الارض والسـماء ، فـأين العبـادة التي هي وسيلة للمشتهيات الحيوانية للانسان ولو في العـالم

---

(١) من دعاء كميل بن زيـاد النخعي الـذي تلقـاه من الامام علي عليه السلام .

الآخر ، من تلك العبادة التي هي بنفسها عبادة لها اصالة للانسان .

فنظرية العبادة اذن تنتهي بالنهاية الى ان العبادة لها مراتب ولكن العبادة ـ لتحقيق المشتهيات الحيوانية في الآخرة ـ تعتبر كمالاً بالنسبة الى حالة عدم العبادة والاخلاد الى عالم الماديات ، لأن الانسان جعل الله واسطة لذلك الامر الباقي وهو كمال عظيم بالنسبة لعبادة الهوى والنفس ، ولكن الفرق بين هذه العبادة وتلك العبادة في الاوج المذكور ، هو الفرق بين الارض والسماء ، فعندما ذكر ﴿ **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** ﴾ وعندما طرحت مراتب ؛ فانه يعلم ان الهدف الاصلي ليس المرتبة النازلة وانما المرتبة العالية ، ومع ذلك فان المرتبة النازلة خير من عدمها .

وقد جاء في تفسير ابن عباس (ليعبدون ـ اي ليعرفون) وبالشكل الذي فسرنا فيه العبادة يكون التعبير ان شيئاً واحداً ، لأن المعرفة هنا هي المعرفة الكاملة الشهودية والعبادة التي تكون في هذه المرحلة لا يمكنها ان تكون الا في مثل هذا العرفان .

ان المعارف العامية والطفولية لا يمكنها ان تؤدي الى

هذه العبادة ، فالعبادة ترجع الى نـظرية الايمـان ، والايمان يـرجع بـدوره الى نظريـة الحقيقة ، ان الاسـلام يدعـو الى الايمـان والعبادة حيث يمتلك الايمـان التحامـاً ادراكيـاً مـع الحقيقـة ، وتلتحم العبـادة ايضـاً التحـامـاً عمليـاً مـع الحقيقـة . . . انه دعـا الى الحكمة والعـدالة . . . دعـا الى المـحبـة . . . دعـا الى الجـمـال « ان الله جميـل ويحـب الجمـال » ولـدينـا في كتـاب الكـافي بـاب تحت عنـوان « التجمل والزينة وغير ذلك » .

ان الاسـلام دعـا لكـل هـذا ، ولكن مـا هـو الهـدف الاصلي ؟ وهل هي جميعـاً في عرض واحـد ؟ او ان الهدف الاصلي شيء واحد ، أما الاخرى فهي امـا مقدمـة او لازم للهدف . كأن تكون العبادة مقدمة للوصـول الى الهدف ، او المحبـة وغيرهـا لازماً من لـوازم الهـدف ، بمعنى انـه اذا وصل الانسان الى الحقيقة فانه يعشق كل مـا هو شـأن من شؤون الحقيقة .

يقول الشاعر الفارسي :

« انني سعيـد بهـذا العـالم لأنـه يستمـد سعـادتـه منـه تعالى » .

« وأنا اعشق كل ذرات العالم لأنها كلها منه » .

« اننـا نعتقـد ان الهـدف هـو « الحقيقـة » اي نفس « الله » .

ففي منطق الاسلام ، الهدف شيء واحد وهو الله ، والتوحيد الاسلامي ـ اصولاً ـ لا يقتفي غير هذا . ان التوحيد الاسلامي اذا طرح هدفاً آخر مثل الجنة او الخلاص من جهنم فانها اهداف في الدرجة الثانية لخلاص الاناس المنحطين من الاهداف الجهنمية والا فنفس الحكمة ـ بما هي حكمة وبغض النظر عن ايصالها الى الله ـ ليست هدفاً . نعم اذا اوصلت الحكمة الانسان الى الحقيقة كانت حسنة وتكتسب حسنها من هذه الايصال ، والا فليست مطلوبة بالذات .

والعدالة كذلك ، ان العدالة مطلوبة حينما تقف في وجه النفس الامارة ، وترفع هذا المانع من سبيل الوصول الى الحقيقة ، وما لم يكن قطر الوجود الانساني قطراً متعادلاً فلا يمكنه ان يسير الى الله .

اما المحبة فيمكنها ان تكون من حيث الاثر لا من حيث المقدمية فهي لازم الوصول الى الحقيقة .

وعلى اي حال فاننا نرى الايمان هدفاً في الاسلام لا

وسيلة . وهذه هي خلاصة الكلام .

وهنا قد يطرح سؤال حول قوله تعالى ﴿ **يا ايها الذين آمنوا ، آمِنوا** ﴾[1] فهل الايمان هدف او وسيلة ؟ ولا شك في ان للإيمان آثاراً كثيرة ، ولكن هل طرح الايمان لأجل آثاره ؟ هل على الانسان ان يؤمن ليتخلص من القلق ؟ وعليه ان يؤمن لئلا يعتدي على الآخرين ؟ او ليمتلك الافراد الثقة المتبادلة وغير ذلك ، وهل الايمان مقدمة لهذه الامور ؟ او ان كل هذه الامور هي آثار مترتبة عليه ؟ اما الايمان فبقطع النظر عنها هو هدف . لأنه يعني ارتباط الانسان بالحق والحقيقة .

اذن ، فنحن ننظر للايمان بالله كهدف ، وبعبارة اخرى ان الله ذاته هدف ، وان الايمان في الاسلام - مع كل آثاره - لم يكن واجباً لهذه الآثار لتتحقق آثاره لأنها فوائد الايمان ، ان الايمان واجب لأنه يعني ارتباط الانسان بالحق ، ونفس ارتباط الانسان بالحق في نظر الاسلام كمال .

والعلم كذلك ليس هدفاً ، ان العلم بمعنى من المعاني هو نفس الحكمة ، وهي العلم بحقائق الاشياء .

---

(١) النساء : ١٣٦ .

ليس الجمـال هدفـاً ، ولا العدالـة هدفـاً ، ولا المحبـة هدفاً ولا الجمال ، بل الهـدف هو الله والحقيقـة لا غير ولا غير ، ولكنها حقيقة ملازمـة لهذه الاشيـاء الاخرى أمـا من باب المقدمة او من باب النتيجة .

وهكـذا بحثنـا في آخـر الاهـداف والمثـل السـاميـة في الايديولـوجية الاسـلامية التي لا تـرى الا الله شيئاً آخـر ، ومن هنـا فان العبـادة العليـا هي وسيلة لارتبـاط الانسـان بالله وليست وسيلة ارتباط الانسان بالاشياء الاخرى .

الفهرس